تفكيك خطاب التطرف

أعمال المؤتمر الدولي
الذي نظمته الرابطة المحمدية للعلماء
بتعاون مع رابطة العالم الإسلامي
تحت الرعاية السامية لأمير المؤمنين
جلالة الملك محمد السادس نصره الله

يومي 19 و20 شوال 1439هـ
الموافق لـ 03 و04 يوليوز 2018م
الرباط، المملكة المغربية







المحرر المنفذ: فاطمة المنير / **الإخراج الفني:** إبراهيم كوزا

الطبعة الأولى: (1439هـ/2018م)

تطلب منشوراتنا من:

- **مصلحة النشر والطبع وتنظيم المعارض**

الرابطة المحمدية للعلماء، شارع لعلو، لوداية - الرباط.

الهاتف والفاكس: 0537.70.15.85

البريد الإلكتروني: manchoratarrabita@gmail.com

- **دار الأمان للنشر والتوزيع. الرباط:**

4 ساحة المامونية - الرباط.

هاتف: 0537.26.37.87 / 0537.72.32.76

فاكس: 0537.20.00.55

البريد الإلكتروني: libdarelamane@yahoo.fr

المحتويات

في الاستعلاء على الأمم
وتفكيك التطرف والإرهاب

د. محمد شهيد

أستاذ المقاصد والعلوم الإنسانية، جامعة محمد الأول وجدة ـ المغرب

لقد أصبح التطرف وثقافته وإشاعته تجارة أرباحها أكثر من أن تعد وتحصى. وتفننت الثقافات المعادية للاعتدال والتسامح في تأجيجه وتشجيعه، وذلك لما تجنيه من مكاسب اقتصادية واجتماعية وسياسية من ورائه. وزاد من هول الأمر ثقافة العصر السائدة التي فقدت بوصلة الحكمة والتعقل واختارت ركوب موجة العبثية والتشتت واللهث وراء الاستهلاك وإشاعته وسط الشعوب والهدف دائما كسب الأرباح واحتكارها دون إعارة قضية الأحاسيس والمشاعر الإنسانية النبيلة، التي سعت الديانات السماوية والعقلاء والحكماء من أجل ترسيخها ونشرها، أي قيمة وأي مكانة.

[illegible] ورحمة خدماتها التي توهمهم دائما بأمن وأمان خادع لا يتحقق ولا أمل في وجود رشيد يدفع نحو ذلك.

لقد نجح الغرب في زعزعة نفوس الناس بإشاعة ثقافة الخوف وبث الرعب من كل شيء وفي كل شيء، بل تجديد العهد بالخوف والرعب مع كل لحظة وحين. «إن زماننا لا تنقصه الأوقات الباعثة على الخوف، ويفتقر أيما افتقار إلى اليقين والأمن والأمان: فما أكثر المخاوف، وما أكثر ألوانها، حيث تستحوذ مخاوف خاصة على الناس من فئات عمرية وجنسية واجتماعية مختلفة، وهنالك أيضا مخاوف تنتابنا جميعا، بصرف النظر عن المكان الذي ولدنا فيه أو اخترنا (أو أجبرنا) على العيش فيه.

لكن تلك المخاوف لا تتراكم في وحدة واحدة بسهولة، فهي تنزل واحدة تلو الأخرى في

تتابع ثابت وإن كان عشوائيا، وهذا يتحدى الجهد الذي نبذله..من أجل ربطها، وتتبع جذورها المشتركة»[1].

في غياب مثل هذه المعطيات يصعب فهم واستيعاب ظواهر الخوف المتنوعة والمتعددة والتي يشكل الإرهاب والتطرف جانبا مهما منها. ولذلك أيضا من الصعوبة بمكان الاقتناع بأن المقاربة الأمنية أو الجزئية التي تعتمد جانبا دون جوانب أخرى تشكل تداخلا يعقد من فهم الظاهرة. غير أننا لا نرى غضاضة في تبني مقاربة هي أكثر نجاعة وأقدر على تفكيك الظاهرة والدخول معها في مسلك له من الإمكانات ما يسهل تجفيف منابعها وتقلل من مخاطر انتشارها وتهديده. إنها المقاربة الفكرية الهادئة الحكيمة المعتمدة على الوحي وهديه والاستنجاد بالمقاصد الشرعية في التوجيه والتسديد.

من جهة أخرى فنفسية التطرف مشحونة بنَفَس ملؤه عقدة التفوق وعقلية العجرفة واحتقار الآخر: بغض النظر عن الآخر هل هو المسلم أو غيره؛ فيبحث لها عن أصول ومرتكزات يستند عليها. وحبذا لو كانت شرعية، بمعنى أن يكون لهذه المرتكزات أصل وسند من النص القرآني أو الحديث النبوي الشريف أو أي مصدر آخر شرعي بالأساس. وهو ما نرى أنه وجده بسهولة في القرآن الكريم حين ركز على قول الله تعالى: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾ (آل عمران: 110)، وكذلك قول الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنتُمُ الْأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ (آل عمران: 139). ذلك أن القول بخير أمة أخرجت للناس والقول أيضا بالاستعلاء على الأمم الأخرى عموما يمتلك سلطة من الأبعاد بشكل عام حدث تضخما في الأنا وفي الذات عند كثيرين من الذين لم يلتزموا الفهم السليم للنص المؤسس على القواعد والأصول التي تعارف عليها العقلاء والعلماء والحكماء من الأمة.

وبالرجوع إلى جملة من المفسرين من قبيل الطبري،[2] والزمخشري،[3] والرازي،[4]

---

1. زيجموند باومان، الخوف السائل، ترجمة: حجاج أبو جبر. تقديم: هبة رءوف عزت، الشبكة العربية للأبحاث والنشر ـ بيروت، ط.1، 2017م، ص:45 ـ 46.
2. أبو جعفر محمد بن جرير الطبري (310هـ)، جامع البيان في تأويل القرآن، تحقيق: أحمد محمد شاكر، مؤسسة الرسالة، ط.1، 2000م، 7/102 ـ 103.
3. أبو القاسم محمود بن عمرو بن أحمد الزمخشري (538هـ)، الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل، دار الكتاب العربي ـ بيروت، ط.3، 1407هـ، 1/400.
4. أبو عبد الله محمد بن عمر الرازي (606هـ)، مفاتيح الغيب، دار إحياء التراث العربي ـ بيروت، ط.3، 1420هـ، 8/323.

والقرطبي،[1] وابن كثير،[2] والبيضاوي،[3] والشوكاني،[4] ومحمد رشيد رضا،[5] وابن عاشور،[6] وطنطاوي،[7] وسيد قطب،[8] والثعلبي،[9] وابن عطية،[10] وابن مخلوف الثعالبي،[11] فإن نتائج وملاحظات سريعة قد بدت لنا بوضوح، منها:

ما يتعلق بالخيرية:

- الخيرية غير مرتبطة بمرحلة زمنية محددة، بل تتكرر كلما نضجت شروط نضجها.
- الخيرية مرتبطة بشكل كبير بشرط الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.
- الخيرية غير مرتبطة بأمة واحدة ووحيدة، وإنما هي قيمة تحقق وليست صكا يدفع.

أما بخصوص الاستعلاء:

- فإن الأمر يتعلق في الآية المذكورة بسياق خاص يرتبط بالجهاد ضد المعتدين، ودعوة للنهوض واستكمال الطريق بعد هزيمة أحد.

---

1. أبو عبد الله محمد بن أحمد بن أبي بكر القرطبي (671هـ)، **الجامع لأحكام القرآن**. تحقيق: أحمد البردوني وإبراهيم أطفيش. دار الكتب المصرية - القاهرة، ط.2، 1964م، 4/171.
2. أبو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير (774هـ)، تفسير القرآن العظيم، تحقيق: سامي بن محمد سلامة، دار طيبة للنشر والتوزيع، ط.2، 1999م، 2/93.
3. أبو سعيد عبد الله بن عمر بن محمد البيضاوي (685هـ)، أنوار التنزيل وأسرار التأويل. تحقيق: محمد عبد الرحمن المرعشلي. دار إحياء التراث العربي - بيروت، ط.1، 1418هـ، 2/33.
4. محمد بن علي بن محمد بن عبد الله الشوكاني (1250هـ)، فتح القدير، دار ابن كثير - دمشق، ط.1، 1414هـ، 425/1.
5. محمد رشيد بن علي رضا (1354هـ)، تفسير القرآن الحكيم (تفسير المنار)، الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1990م، 4/48.
6. محمد الطاهر بن محمد بن محمد الطاهر بن عاشور (1393هـ)، **تحرير المعنى السديد وتنوير العقل الجديد من تفسير الكتاب المجيد**، الدار التونسية للنشر - تونس، 1984م، 4/49.
7. محمد سيد طنطاوي (1431هـ)، التفسير الوسيط للقرآن الكريم، دار نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع، الفجالة - القاهرة، ط.1، 1997م، 2/213.
8. سيد قطب (1385هـ)، **في ظلال القرآن**، دار الشروق - بيروت، ط.17، 1412هـ، 1/447.
9. أبو إسحاق أحمد بن محمد بن إبراهيم الثعلبي (427هـ)، **الكشف والبيان عن تفسير القرآن**. تحقيق: الإمام أبي محمد بن عاشور، مراجعة وتدقيق: الأستاذ نظير الساعدي، دار إحياء التراث العربي - بيروت، ط.1، 2002م، 172/3.
10. أبو محمد عبد الحق بن غالب بن عبد الرحمن بن تمام بن عطية (542هـ)، **المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز**، تحقيق: عبد السلام عبد الشافي محمد، دار الكتب العلمية - بيروت، ط.1، 1422هـ، 1/512.
11. أبو زيد عبد الرحمن بن محمد بن مخلوف الثعالبي (875هـ)، **الجواهر الحسان في تفسير القرآن**، تحقيق: محمد علي معوض وعادل أحمد عبد الموجود، دار إحياء التراث العربي - بيروت، ط.1، 1418هـ، 2/114.

- الاستعلاء بشارة بالغلبة والنصر وكذلك علو في العاقبة.
- الاستعلاء من العلو الموعود من الله للإسلام مع تحقيق شروط النجاح.

لكن الغريب في الأمر هو كيف انقلب مفهوم الاستعلاء على الأمم والخيرية للأمة الإسلامية من قيم إيجابية ناهضة وتبث روح الأمل والبعث في نفوس المؤمنين بروح التفاني والتضحية في سبيل المسلمين والإنسان بغض النظر عن دينه وعرقه وثقافته.. إلى قيمة سلبية كلها كسل وخمول ودعوة إلى تسخير الآخر واستعباده ومقاتلته واستدراجه بكل أسلوب عنيف ومرعب دون مراعاة أدنى شروط الإسلام المعروفة بالحكمة والبصيرة والرشد.

إن التأمل في اللحظة الفارقة بين الفهمين والقيمتين، تبين أنها وقعت في لحظة انحرف فيها السياق الحضاري للأمة الإسلامية، من سياق الرشد والتعقل والحكمة المؤيدة بالوحي والهدي الرباني . إلى لحظة الخلود إلى الأرض ولّي نصوص الشرع ومحاولة تحميلها فهوم وأنظار بعيدة كل البعد عن مقاصد الشرع وروحه الربانية.

إن هذه اللحظة تميز بين فترة تصدى للنهوض؛ من التخلف والركون للأمة الإسلامية في ما يعرف مرحلة النهضة علماء ومثقفون متمرسون في العلم والارتباط بقضايا الأمة وفترة تسلم المشعل أو بالأحرى اختطفه قسرا جيل من الشباب المتسرع قليل التجربة وكثير الحماس لا يفقه بالضبط أولويات الأمة ومتطلبات المرحلة. إنها فترة التمييز والتمايز بين جيلين:

الجيل الأول: وهو الجيل الذي عاش الفترة التي تمتد منذ ما اصطلح عليه بـ«عصر النهضة» و«عهد اليقظة العربية» أو «عهد التنوير»، والتي يؤرخ لها ابتداء من القرن التاسع عشر إلى حدود نهاية الحرب العالمية الأولى. والتي برز فيها أعلام كبار تركوا بصمات واضحة في العقل العربي والعقل الإسلامي في مجالات عدة ومتنوعة من قبيل: رفاعة الطهطاوي (1873م)، وخير الدين التونسي (1890م)، وجمال الدين الأفغاني (1897م)، وعبد الرحمن الكواكبي (1902م)، والشيخ عبد الله دراز (1932م)، ومحمد رشيد رضا (1935م)، ومحمد إقبال (1938م)..

الجيل الثاني: وهو الجيل الذي عاصر فترة ميلاد الحركة الإسلامية التنظيمية أو ما يصطلح عليه بـ«الإسلام السياسي» أو «الحركات الأصولية» أو «الجماعات الإسلامية» وبالضبط منذ تأسيس حركة «الإخوان المسلمون» في 1928م، فظهر أعلامها الكبار من مثل حسن البنا (1949م)، والمنظر الحركي للجماعة سيد قطب (1966م) وكذلك الأب الروحي للعمل

الإسلامي في شبه القارة الهندية أبو الأعلى المودودي (1979م)..

إن القطيعة التي حصلت بين تصورين واضحين للعودة إلى النهوض والريادة في الواقع أثرت على كثير من المفاهيم المؤسسة للنهضة والتجديد والاجتهاد.. ومن بينها مفهوم الاستعلاء الذي له علاقة وثيقة بالنظر إلى الآخر، ومن ثم التعاون والبناء في الخروج من الأزمة التي تعرفها الأمة.

وبالنظر إلى هذا، هل كان لظهور الحركات الإسلامية أو الإسلام السياسي دور كبير في انتشار فهم سلبي للاستعلاء؟

هل الحركات الدينية بمشروعها الداعي إلى تطبيق الشريعة أسقطها في محاربة الآخر ومقاتلته أي الجهاد، ومن ثم السقوط في الفهم السلبي لهذه القيمة؟

أولا ـ في تفكيك المفهوم

إن مفهوم الاستعلاء على الأمم ترتبط به جملة من المفاهيم وتنبثق منه، لتشكل منظومة أو نموذجا متداخلا يصعب الفصل بينه. وهذه المفاهيم قد شكلت وعيا جمعيا في عقل الشباب خاصة في الأمة الإسلامية المترامية الأطراف، وأثرت فيه بشكل كبير خاصة مع الحملة الشرسة على العلماء والشيوخ بدعوى محاربة علماء السلاطين والشيوخ المتجمدين على كل فهم سطحي في مناخ الانطلاق والتجديد والاجتهاد من أجل استرداد المجد المفقود للأمة.

[illegible] الضربات التي تلقتها الأمة من الاستعمار ومن المتربصين بالأمة، ولكن مع ذلك نرى أنه من اللازم قراءة هذه المرحلة وهذه المفاهيم لما آل إليه الوضع الخطير الحالي للأمة الإسلامية. لذلك نحاول في الآتي الوقوف مع هذه المفاهيم والأثر البالغ الذي تخلفه في مفهوم «الاستعلاء»:

1 ـ مفهوم: «الجاهلية»

قد يكون هذا المفهوم من أشدها وقعا على نفس المتلقي في الواقع المعاصر، حين تلقاه العديد من المثقفين والعامة أيضا بكبير اندهاش وبهول صدمة. ففي الوقت الذي كان يعتقد أن «الجاهلية» مسألة مرتبطة بفترة زمنية قضى عليها ظهور الإسلام، ومن ثم قطعت معها الإنسانية بدون رجعة وذلك باعتبار التطور المعرفي والاجتماعي والحقوقي والحضاري بشكل عام. إذا بالمفهوم

يخرج من جديد إلى الساحة مع ظهور حركة الإخوان المسلمين خاصة مع كبار منظريها خاصة سيد قطب وأيضا من خلال احد المفكرين القريبين من الحركة شقيقه محمد قطب.

لم يترك سيد قطب مصطلح الجاهلية دون توضيح لذلك يقرر أن الحد الفاصل في هذا التعريف هو العقائد والقيم والشرائع والتصورات، فيقرر «أن العالم يعيش اليوم كله في «جاهلية» من ناحية الأصل الذي تنبثق منه مقومات الحياة وأنظمتها. جاهلية لا تخفف منها شيئا هذه التيسيرات المادية الهائلة. وهذا الإبداع الفائق!

هذه الجاهلية تقوم على أساس الاعتداء على سلطان الله في الأرض وعلى أخص خصائصه الألوهية.. وهي الحاكمية.. إنها تسند الحاكمية إلى البشر، فتجعل بعضهم بعضا أرباب.. في صورة ادعاء حق وضع التصورات والقيم، والشرائع والقوانين، والأنظمة والأوضاع، بمعزل عن منهج الله للحياة. وفيما لم يأذن به الله»[1].

والجاهلية لا ترتبط بفترة زمنية محددة كما يقرر سيد. إذ يمكن أن توافق الواقع المعاصر أو أي واقع غير المرحلة الزمنية التي عاشتها البشرية قبل الإسلام. لذلك فإن «.. واقع البشرية اليوم يتفق مع واقعها قبل الإسلام في الصفة الرئيسية المميزة للجاهلية: صفة عبودية البشر للبشر.. وعبادة الإنسان لهواه، واتخاذه إلها من دون الله، ورفضه لألوهية الله سبحانه في الأرض في حياة الناس الواقعية..ومهما تعددت أشكال الأنظمة والأوضاع، فإنها تلتقي في هذه الصفة الرئيسية المميزة للجاهلية»[2].

يقابل المجتمع الإسلامي المجتمع الجاهلي في التصور الحركي الذي وضعه سيد قطب، فإذا كان للمجتمع الإسلامي خصائص تميزه عن غيره من المجتمعات، فإن المجتمع الجاهلي هو أيضا له خصائصه ومميزاته. لذلك يقول سيد قطب: ««المجتمع الإسلامي» هو الذي يطبق فيه الإسلام..عقيدة وعبادة، وشريعة ونظاما، وخلقا وسلوكا..و«المجتمع الجاهلي» هو المجتمع الذي لا يطبق فيه الإسلام، ولا تحكمه عقيدته وتصوراته، وقيمه وموازينه، ونظامه وشرائعه، وخلقه وسلوكه..»[3].

وشقيقه، محمد قطب، يدرك هول هذه الصدمة التي ستحل بالمتلقي لهذا المفهوم، لذلك يبرر

1. سيد قطب، **معالم في الطريق**، دار الشروق - بيروت، ط.8، 1983م، ص:10.
2. سيد قطب، **مقومات التصور الإسلامي**، دار الشروق - بيروت، ط.3، 1988م، ص:23.
3. سيد قطب، **معالم في الطريق**، ص:116.

ذلك قائلا: «إذا عرفنا أن الجاهلية ليست فترة من الزمن محدودة في ثنايا التاريخ..

وإذا عرفنا أنها ليست المقابل لما يسمى بالعلم والحضارة والمدنية والتقدم المادي..الخ..

وإنما هي رفض الاهتداء بهدي الله ورفض الحكم بما أنزل الله..

إذا عرفنا هذا وذاك فقد تهيأت أذهاننا ونفوسنا ـ بعض التهيؤ ـ للحديث عن جاهلية القرن العشرين!»[1].

ثم هل بالضرورة المجتمع الجاهلي هو المجتمع الذي ينعدم فيه الإيمان بالله ويسوده الإلحاد والكفر بالخالق؟ لم يترك سيد قطب هذا السؤال معلقا فأجاب: «و«المجتمع الجاهلي» قد يتمثل في صور شتى ـ كلها جاهلية ـ:

قد يتمثل في صورة مجتمع ينكر وجود الله تعالى، ويفسر التاريخ تفسيرا ماديا جدليا..

وقد يتمثل في مجتمع لا ينكر وجود الله تعالى، ولكن يجعل له ملكوت السماوات، ويعزله عن ملكوت الأرض..

وبذلك يكون مجتمعا جاهليا، ولو أقر بوجود الله سبحانه ولو ترك الناس يقدمون الشعائر لله، في البيع و الكنائس والمساجد»[2].

وفي المحصلة على أي حالة ينطبق مفهوم الجاهلية؟ أو ما هو المجتمع الذي يحق وصفه بالجاهلية حسب سيد قطب؟ «إن المجتمع الجاهلي هو كل مجتمع غير المجتمع المسلم! وإذا أردنا التحديد الموضوعي قلنا: إنه هو كل مجتمع لا يخلص عبوديته لله وحده.. متمثلة هذه العبودية في التصور الاعتقادي، وفي الشعائر التعبدية، وفي الشرائع القانونية..

وبهذا التعريف الموضوعي تدخل في إطار «المجتمع الجاهلي» جميع المجتمعات القائمة اليوم في الأرض فعلا!!»[3].

2. مفهوم: «العزلة الشعورية»

من أهم مميزات التصور الحركي عند سيد قطب إبداعه جملة مفاهيم حركية صارت لصيقة برؤيته واستراتيجية التغيير عنده. وقد تميز مفهوم «العزلة الشعورية» داخل نسقه الحركي أو

1. محمد قطب، **جاهلية القرن العشرين**، دار الشروق ـ بيروت، 1983م، ص:12.
2. سيد قطب، **معالم في الطريق**، ص:116 ـ 117.
3. سيد قطب، **معالم في الطريق**، ص:98.

الحزبي. لذلك فهو من أهم المفاهيم توظيفا عند كثير من الجماعات الإسلامية المتشددة. ولا شك هو من المفاهيم التي يمكن تفكيكها من مفهوم الاستعلاء والذي أثر بشكل كبير في مسير عديد الأفراد والحركات والأحزاب في الساحة العربية والإسلامية.

يؤصل للمفهوم سيد قطب من خلال السيرة والمرحلة الأولى للصحابة رضوان الله عليهم. فيلاحظ أن الصحابي كان «..حين يدخل في الإسلام يخلع على كل عتبته كل ماضيه في الجاهلية. كان يشعر في اللحظة التي يجيء فيها إلى الإسلام أنه يبدأ عهدا جديدا، منفصلا كل الانفصال عن حياته التي عاشها في الجاهلية. وكان يقف من كل ما عهده في جاهليته موقف المستريب الشاك المتخوف، الذي يحس أن كل هذا رجس لا يصلح للإسلام!»[1].

وهذه العزلة الشعورية هي بمثابة انفصال أو انقطاع بين حالتين متمايزتين لا تقبلان التلاقي، ينتقل خلالهما المسلم من حالة إلى أخرى. إنهما حالة الجاهلية وحالة الإسلام، فيقرر «كانت هناك عزلة شعورية كاملة بين ماضي المسلم في جاهليته وحاضره في إسلامه، تنشأ عنها عزلة كاملة في صلاته بالمجتمع الجاهلي من حوله وروابطه الاجتماعية، فهو قد انفصل نهائيا من بيئته الجاهلية واتصل نهائيا ببيئته الإسلامية. وحتى ولو كان يأخذ من بعض المشركين ويعطي عالم التجارة والتعامل اليومي. فالعزلة الشعورية شيء والتعامل اليومي شيء آخر»[2].

لا يهادن سيد قطب ما يسميه المجتمع الجاهلي. لذلك يصر على أن أولى الأولويات معه هي الاستعلاء عليه. «إن أولى الخطوات في طريقنا هي أن نستعلي على هذا المجتمع الجاهلي من [illegible] هذا المجتمع الجاهلي وقيمه وتصوراته، وألا نعدل نحن في قيمنا وتصوراتنا قليلا أو كثيرا لنلتقي معه في منتصف الطريق. كلا! إننا وإياه على مفرق الطريق، وحين نسايره خطوة واحدة فإننا نفقد المنهج كله ونفقد الطريق!»[3].

بل يرى أن العقيدة الإسلامية هي التي تقرر ذلك منذ الوهلة الأولى التي تظهر فيها المجموعة الأولى المؤسسة للمجتمع الإسلامي مهما قل عددها، وعليه فحين «..يبلغ المؤمنون بهذه العقيدة ثلاثة نفر، فإن هذه العقيدة ذاتها تقول لهم: أنتم الآن مجتمع، مجتمع إسلامي مستقل، منفصل عن المجتمع الجاهلي الذي لا يدين لهذه العقيدة، ولا تسود فيه قيمها الأساسية..وهنا يكون

1. سيد قطب، **معالم في الطريق**، ص:20.
2. سيد قطب، **معالم في الطريق**، ص:20.
3. سيد قطب، **معالم في الطريق**، ص:22.

المجتمع الإسلامي قد وُجِدَ (فعلا)!»[1].

من هنا تبدأ المعركة الفاصلة وتمتد على طول الطريق لذلك وجب الإعداد لها نفسيا لأنه لابد منها في نظره، فيؤكد «وفي الطريق تكون المعركة قد قامت بين المجتمع الوليد الذي انفصل بعقيدته وتصوره، وانفصل بقيمه واعتباراته، وانفصل بوجوده وكينونته، عن المجتمع الجاهلي. الذي أخذ منه أفراده. وتكون الحركة من نقطة الانطلاق إلى نقطة الوجود البارز المستقل قد ميزت كل فرد من أفراد هذا المجتمع..»[2].

إن هذه العزلة ليست عزلة مادية حقيقية تفصل المسلم عن المجتمع كليا وعن محيطه، إنما هي عزلة واستعلاء شعوري ونفسي فقط فسماتها الكبرى «..هي المخالطة مع التميز، والأخذ مع الترفع، والصدع بالحق في مودة، والاستعلاء بالإيمان في تواضع..»[3].

وهذه العزلة الشعورية وهذا الاستعلاء الإيماني من جهة أخرى «إنه يمثل حالة الاستعلاء التي يجب أن تستقر عليها نفس المؤمن إزاء كل شيء، وكل وضع، وكل قيمة، وكل أحد. الاستعلاء بالإيمان وقيمه على جميع القيم المنبثقة من أصل غير أصل الإيمان.

الاستعلاء على قوى الأرض الحائدة عن منهج الإيمان. وعلى قيم الأرض التي لم تنبثق من أصل الإيمان. وعلى تقاليد الأرض التي لم يصنعها الإيمان، وعلى قوانين الأرض التي لم يشرعها الإيمان. وعلى أوضاع الأرض التي لم ينشئها الإيمان.

الاستعلاء... مع ضعف القوة، وقلة العدد، وفقر المال، كالاستعلاء مع القوة والكثرة والغنى على السواء»[4].

3. مفهوم: «جماعة المسلمين»

منذ ثلاثينات القرن الماضي إلى الآن استهوى الشباب المنتفض ضد الواقع المرير، والذي اختار السير على نهج الحركات الإصلاحية والإحيائية الدينية، مصطلح «جماعة المسلمين» وكذلك مصطلح «الجماعة الإسلامية».. وقد يكون من أهم الدوافع إلى هذا الاختيار تلقي هذا المفهوم بالقبول من قبل الوجدان الشعبي والجماعي العربي والإسلامي لما للجماعة من مضامين

1. سيد قطب، **معالم في الطريق**، ص:129.
2. سيد قطب، **معالم في الطريق**، ص:130.
3. سيد قطب، **معالم في الطريق**، ص:176.
4. سيد قطب، **معالم في الطريق**، ص:178.

ترتبط بالتعاون والتكافل والعمل على النهوض والإصلاح.. وعديد القيم الايجابية.

لذلك فمفهوم «جماعة المسلمين» يحتاج إلى قراءة جديدة لنفض ما علا عليه من الغبار جراء قراءات وفهوم من قبل عدد غير قليل من ذوي الزاد الضعيف في العلم. وهؤلاء ما أكثرهم وقد ابتليت الأمة بهم قديما وحديثا بحيث بذهاب العلم يتصدى للفتوى الجهال والضلال فيضلوا ويضلوا. حتى أصبح هذا المفهوم مثار السخرية والازدراء من قبل العديدين. كما قد يكون المفهوم وظف عن قصد من أجل تجييش وتحميس الجماهير المتعطشة لتحقيق ما تراه نصرة للدين وتحقيقا للإسلام. لذلك لابدامن مراجعة نقدية علمية.

وعلى العموم فجماعة المسلمين وردت فيها نصوص كثيرة نذكر منها ما يلي:

- عن ابن عباس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ عن النبي ﷺ قال: «من رأى من أميره شيئا يكرهه فليصبر، فإنه ليس أحدا يفارق الجماعة شبرا فيموت إلا مات ميتة الجاهلية»[1].

- حديث حذيفة بن اليمان رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ انه قال:كان الناس يسالون رسول الله ﷺ عن الخير، وكنت اسأله عن الشر مخافة أن يدركني فقلت يا رسول الله: إنا كنا في جاهلية وشر، فجاءنا الله بهذا الخير فهل بعد هذا الخير من شر؟ قال: «نعم»، قلت: وهل بعد ذلك الشر من خير؟ قال: «نعم، وفيه دخن، قلت: وما تدخنه؟ قال: «قوم يهدون بغير هديي تعرف منهم وتنكر»، قلت فهل بعد ذلك الخير من شر؟ قال: «نعم دعاة على أبواب جهنم من أجابهم إليها قذفوه فيها»، قلت: يا رسول الله صفهم لنا، قال: «هم من جلدتنا ويتكلمون بألسنتنا»، قلت: فما تأمرني إن أدركني ذلك، قال: «تلزم جماعة المسلمين وإمامهم»، قلت: فإن لم يكن لهم جماعة ولا إمام؟ قال: «فاعتزل تلك الفرق كلها، ولو أن تعض أصل شجرة حتى يدركك الموت وأنت على ذلك»[2].

في هذه النصوص دعوة نبوية صريحة إلى التمسك بجماعة المسلمين وعدم الحياد عنها مهما كانت الظروف والأحوال. والجماعة هنا قد تكون غالبية الأمة وسوادها الأعظم خاصة في تدبير أمور الحياة السياسية وأمور الفكر والعقيدة خاصة إذا كان للإسلام وأهله جولته وبسطته على تسيير أموره في مؤسسات وهيكلة تمكنه من تشريع وتدبير القوانين التي تسير مجتمعه ودوائر حكمه. كما قد تكون أقلية أو أقل الأقلية، أي عبارة عن عناصر قليلة، تتمسك بالحق وبالصواب

1. رواه البخاري، أبو عبد الله محمد بن إسماعيل البخاري (256هـ)، **الجامع الصحيح المسند من حديث رسول الله وسننه وأيامه**، بيت الأفكار الدولية - عمان، في كتاب الفتن، باب: قول النبي ﷺ سترون بعدي أمورا تنكرونها.
2. رواه البخاري، **كتاب الفتن**، باب: كيف الأمر إذا لم تكن جماعة.

المتماشي مع الوحي وأهدافه ومراميه.

وفي كل الأحوال فإن من قيم الإسلام التمسك بالحق وعدم التفريط فيه خاصة إذا تمثل هذا الحق والصواب لدى مجموعة من المسلمين المتمسكين بهدي القرآن وهدي النبوة.

والحقيقة أن هذا التمسك بهذا المفهوم يدخل في إطار تقوية الجبهة الداخلية وحماية بيضة الأمة لتكون متماسكة وقوية ومهابة الجانب أمام المتربصين بها والطامعين فيها. لذلك يبدو هذا المفهوم مقصودا في حد ذاته، وهو ما جعل الحركات الإسلامية المتسيسة والمتشددة تجعله مصطلحا مركزيا في تصوراتها للتغيير لتجعل الخارج عنها وكأنه فار من يوم الزحف. بكلمة ظلت هذه الحركات تكفر وتخون المتخلي والمتراجع عن الانتماء لهذه الجماعات.

إننا أمام عملية إسقاط قسرية وقهرية لمفهوم «جماعة المسلمين» بالمفهوم المطلوب في النصوص على الجماعات والحركات الإسلامية المعاصرة. كما تم إسقاط كثير من الأحكام الشرعية المرتبطة بها (ميتة جاهلية مثلا) على الواقع أيضا. فوقع لبس والتباس في المبنى والمضمون يحتاج إلى إعادة بناء على ضوء الشرع ومراعاة الواقع والتحولات التي عرفتها الأمة الإسلامية والعالم من حولها.

4. مفهوم: «البيعة»

بين مفهوم «البيعة» ومفهوم «الإمامة» ومفهوم «الجماعة» ارتباط وثيق. ذلك أن للإمام عقد بيعة [illegible] واجبات من [illegible] حالة الجماعة.

وقد جاءت البيعة في جملة من النصوص من بينها:

ففي القرآن الكريم جاءت في قوله تعالى في سورة الفتح: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ ٱللَّهَ يَدُ ٱللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ فَمَن نَّكَثَ فَإِنَّمَا يَنكُثُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِمَا عَـٰهَدَ عَلَيْهِ ٱللَّهَ فَسَيُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ (الفتح: 10)، وكذلك في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ ٱللَّهَ يَدُ ٱللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ فَمَن نَّكَثَ فَإِنَّمَا يَنكُثُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِمَا عَـٰهَدَ عَلَيْهِ ٱللَّهَ فَسَيُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ (الفتح: 18). ثم في قوله سبحانه: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُؤْمِنَـٰتُ يُبَايِعْنَكَ عَلَىٰٓ أَن لَّا يُشْرِكْنَ بِٱللَّهِ شَيْـًٔا وَلَا يَسْرِقْنَ وَلَا يَزْنِينَ وَلَا يَقْتُلْنَ أَوْلَـٰدَهُنَّ وَلَا يَأْتِينَ بِبُهْتَـٰنٍ يَفْتَرِينَهُۥ بَيْنَ أَيْدِيهِنَّ وَأَرْجُلِهِنَّ وَلَا يَعْصِينَكَ فِى مَعْرُوفٍ فَبَايِعْهُنَّ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُنَّ ٱللَّهَ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ (الممتحنة: 12).

أما في السنة النبوية الشريفة فقد وردت في قول النبي ﷺ: من خلع يدا من طاعة، لقي الله يوم القيامة لا حجة له، ومن مات وليس في عنقه بيعة، مات ميتة جاهلية»[1]. وفي حديث آخر أخرجه الإمام مسلم: «حدثنا عبيد الله بن معاذ العنبري، حدثنا أبي، حدثنا عاصم وهو ابن محمد بن زيد، عن زيد بن محمد، عن نافع، قال: جاء عبد الله بن عمر إلى عبد الله بن مطيع حين كان من أمر الحرة ما كان، زمن يزيد بن معاوية، فقال: اطرحوا لأبي عبد الرحمن وسادة، فقال: إني لم آتك لأجلس. أتيتك لأحدثك حديثا سمعت رسول الله ﷺ يقوله: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «من خلع يدا من طاعة، لقي الله يوم القيامة لا حجة له، ومن مات وليس في عنقه بيعة، مات ميتة جاهلية»[2].

قال ابن خلدون: «اعلم أنّ البيعة هي العهد على الطّاعة كأنّ المبايع يعاهد أميره على أنّه يسلّم له النّظر في أمر نفسه وأمور المسلمين لا ينازعه في شيء من ذلك ويطيعه فيما يكلّفه به من الأمر على المنشّط والمكره وكانوا إذا بايعوا الأمير وعقدوا عهده جعلوا أيديهم في يده تأكيدا للعهد فأشبه ذلك فعل البائع والمشتري فسمّي بيعة»[3].

ومفهوم «البيعة» ينطوي على معان عدة هي عبارة عن حقوق وواجبات بين الإمام أو الحاكم أو السلطان من جهة والشعب أو الجماهير أو الرعية من جهة أخرى، وهي الحلقة الهامة في حياة الدولة واستمرارها، أو في فنائها وانفراطها. هذا ولم يعرف تاريخ الأمة الإسلامية ـ مثلا ـ حادثة أو حربا بسبب من الأسباب مثل الذي كان مرتبطا أشد الارتباط بهذا المفهوم الخطير حتى قال الإمام الشهرستاني[4]: «الخلاف... في الإمامة، وأعظم خلاف بين الأمة خلاف الإمامة، إذ ما سل سيف في الإسلام على قاعدة دينية مثل ما سل على الإمامة في كل زمان».

5. مفهوم «الإمام»

كما يرتبط بهذا أيضا مفهوم «الإمام»، ذلك أن الإمام أو الأمير ركن وقطب لابد منه في تشكيل الأمة الإسلامية، فإذا وُجدت «جماعة المسلمين» وتحقق رسمها، لابد لهذه الجماعة من

1. أخرجه مسلم في صحيحه، **كتاب الإمارة**، باب: باب الأمر بلزوم الجماعة عند ظهور الفتن وتحذير الدعاة إلى الكفر.
2. أخرجه مسلم في صحيحه، **كتاب الإمارة**، باب: الأمر بلزوم الجماعة عند ظهور الفتن وتحذير الدعاة إلى الكفر.
3. عبد الرحمن بن خلدون، **ديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والبربر ومن عاصرهم من ذوي الشأن الأكبر**، تحقيق: خليل شحادة، دار الفكر ـ بيروت، ط.2، 1988م، 1/ 261.
4. محمد بن عبد الكريم الشهرستاني، **الملل والنحل**، علق عليه: أبو عبد الله السعيد المندوه، المكتبة الثقافية ـ بيروت، ط.1، 1994م، ص:18.

بيعة تلزم نفسها بحقوق وواجبات. وهذا المصطلح أو هذا المفهوم أي مصطلح «الإمام» أو الأمير أو الخليفة... قد استغل بشكل غير سليم في تراثنا وخاصة في واقعنا المعاصر. فوظف توظيفا سلبيا أزهقت به أرواح كثيرة وأصاب الكثير من البلاد بسببه دمارا وخرابا. وسوف تنجلي هذه التوظيفات السلبية والمشبوهة لهذا المصطلح إذا فهم الدور المنوط بالأمير.

أخرج أبو داود في سننه: عن أبي سعيد الخدري. أن رسول الله ﷺ قال: «إذا خرج ثلاثة في سفر فليؤمروا أحدهم»[1].

قال الآمدي: «إنها عبارة عن رئاسة في الدين. والدنيا عامة لشخص من الأشخاص. وينتقض ذلك بالنبوة، والحق أن الإمامة عبارة عن خلافة شخص من الأشخاص للرسول ﷺ في إقامة قوانين الشرع، وحفظ حوزة الملة، على وجه يجب اتباعه على كافة الأمة»[2].

وقال البغدادي: «..إن الإمامة فرض واجب على الأمة: لأجل إقامة الإمام، ينصب لهم القضاة والأمناء، ويضبط ثغورهم، ويغزي جيوشهم، ويقسم الفيء بينهم، وينتصف لمظلومهم من ظالمهم. وقالوا بأن طريق عقد الإمامة للإمام في هذه الأمة الاختيار بالاجتهاد»[3].

قال ابن خلدون: «حقيقة هذا المنصب وأنّه نيابة عن صاحب الشّريعة في حفظ الدّين وسياسة الدّنيا به تسمّى خلافة وإمامة والقائم به خليفة وإماما فأمّا تسميته إماما فتشبيها بإمام الصّلاة في اتّباعه والاقتداء به ولهذا يقال الإمامة الكبرى وأمّا تسميته خليفة فلكونه يخلف النّبيّ في أمّته فيقال خليفة بإطلاق وخليفة رسول الله»[4].

[illegible] عن الأمير [illegible] أنه يجب أن يكون في جماعة المسلمين [illegible] يتم إلا بوجوده، وهي كثيرة جدا يجمعها صنفان: أحدهما: ما يرجع إلى سياسة المدينة من ذب الجنود التي تغزوهم وتقهرهم. وكف الظالم عن المظلوم. وفصل القضايا، وغير ذلك.. وثانيهما: ما يرجع إلى الملة، وذلك أن تنويه دين الإسلام على سائر الأديان لا يتصور إلا بأن يكون في المسلمين خليفة ينكر على من خرج من الملة، وارتكب ما نصت على تحريمه أو ترك ما نصت على

---

1. سنن أبي داود، كتاب الجهاد، باب: في القوم يسافرون يؤمرون أحدهم.
2. سيف الدين الآمدي، **أبكار الأفكار في أصول الدين**، تحقيق: أحمد محمد المهدي، دار الكتب والوثائق القومية ـ القاهرة، ط.3، 2007م، 121/5.
3. أبو منصور عبد القاهر بن طاهر بن محمد البغدادي، **الفرق بين الفرق وبيان الفرقة الناجية منهم**، تحقيق: محمد فتحي النادي، دار السلام ـ القاهرة، ط.1، 2012م. ص:380.
4. ابن خلدون، ديوان **المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والبربر ومن عاصرهم من ذوي الشأن الأكبر**، 239/1.

افتراضه أشد الإنكار..»[1].

والأدوار الموكلة للأمير أو الخليفة أو السلطان أو الحاكم الذي يقود الأمة يحدده الفقهاء في:

«1. حفظ الدين على الأصول التي أجمع عليها سلف الأمة، ليكون الدين محروساً من الخلل، والأمة ممنوعة من الزلل.

2. تنفيذ الأحكام بين المتشاجرين، وقطع الخصام بينهم، حتى تظهر النصفة فلا يتعدى ظالم ولا يضعف مظلوم.

3. حماية البيضة (الكيان) والذب عن الحوزة ليتصرف الناس في المعايش، وينتشروا في الأسفار آمنين.

4. إقامة الحدود لتصان محارم الله عن الانتهاك، وتحفظ حقوق عباده من إتلاف واستهلاك.

5. تحصين الثغور بالعدة المانعة، والقوة الدافعة، حتى لا يظفر الأعداء بغرَّة ينتهكون بها محرماً، ويسفكون فيها دماً لمسلم أو معاهد.

6. جهاد من عاند الإسلام بعد الدعوة حتى يسلم أو يدخل في الذمة.

7. جباية الفيء والصدقات على ما أوجبه الشرع نصاً واجتهاداً من غير عسف.

8. تقدير العطاء وما يستحق في بيت المال من غير سرف ولا تقصير فيه ودفعه في وقت لا تقديم فيه ولا تأخير.

9. استكفاء الأمناء وتقليد النصحاء فيما يفوضه إليهم من الأعمال ويكله إليهم من الأمور لتكون الأعمال مضبوطة والأموال محفوظة.

10. أن يباشر مشارفة الأمور وتصفح الأحوال ليهتم بسياسة الأمة وحراسة الملة، ولا يعول على التفويض تشاغلاً بلذة أو عبادة، فقد يخون الأمين، ويغش الناصح..»[2].

فـ «الإمام» أو السلطان أو الخليفة أو الحاكم يعتبر ركنا رئيسا في الاجتماع والسياسة عند المسلمين. صحيح أن الفكر السياسي لم يصل إلى تحديد دقيق لنظرية سياسية، واضحة المعالم والقسمات وذلك لأسباب ليس المجال لتفصيلها الآن، ولكن عدة قرائن وأدلة تبين ذلك. ولعل

1. الإمام الدهلوي، **حجة الله البالغة**، شرح وتعليق: محمد شريف سكر، دار إحياء العلوم - بيروت، ط.2، 1992م، 394/2.
2. وهبة الزحيلي، **الفقه الإسلامي وأدلته**، دار الفكر - دمشق، ط.12، 2011م، 6363/8.

أهمها هو المبادرة والمسابقة إلى مبايعة خليفة للرسول ﷺ وجثمانه الشريف لم يوار في التراب بعد. ورغم أن قراءات عدة لهذا الحدث حاولت التركيز على الصراع والخلاف الذي وقع بين الصحابة ووصل مداه إلى حد بعيد، في محاولة لطمس كل معالم السياسة والفكر السياسي أو الفعل السياسي. إلا أن الحدث فيه إشارة بارزة لا تقبل التأويل إلى مركزية الإمام في الجماعة والأمة الإسلامية وهو ما يؤكده ابن خلدون «إن نصب الإمام واجب قد عرف وجوبه في الشرع بإجماع الصحابة والتابعين لأن أصحاب رسول الله ﷺ عند وفاته بادروا إلى بيعة أبي بكر رضي الله عنه وتسليم النظر إليه في أمورهم وكذا في كل عصر من بعد ذلك ولم تترك الناس فوضى في عصر من الأعصار واستقر ذلك إجماعا دالا على وجوب نصب الإمام»[1].

وهو مفهوم مرتبط بالجماعة ومن ثم يرتبط بشكل أوثق بمفهوم «الاستعلاء» على الأمم الذي نحن بصدد قراءته ومحاولة تفكيكه.

فالإمام هو الشخص المبايع من طرف جماعة المسلمين من أجل تسيير شؤون الدين والدنيا والحرص على حمايتها مع الاجتهاد من اجل بناء امة فاعلة قوية مهابة الجانب لا تعتدي على غيرها من الأمم كما أنها لا ينبغي أن تكون لقمة سائغة للمناوئين والأعداء المتربصين.

لذلك للإمام دور يقوم به، لكن هذا الدور لا يكون بدون ضوابط. فالإمام لا يكون مطلوق اليد يقوم بما يحلو له وما يشتهيه، وهو ما حاول الفقه الإسلامي ضبطه حين وضع له أدوارا يؤديها من خلالها يحقق مصالح الأمة.

[illegible] عند تفكيك مفهوم «الاستعلاء» سيتبين أن [illegible] المفاهيم الجزئية أو الثانوية باعتبار موقعها من المفهوم الأم أي مفهوم «الاستعلاء»، لكنها في الأساس هي مفاهيم كلية أو مركزية باعتبار المكانة التي تحتلها في عقلية وضمير الأمة المجتمعي خصوصا.

فمفهوم «جماعة المسلمين» لا يمثل مفهوما ثانويا يمكن تفسير الاجتماع الإسلامي دون إدراك هذا المفهوم ومكانته في الضمير والعقل الإسلامي. فهو مفهوم يتحول إلى قيمة دينية مطلوب التمسك بها انطلاقا من النص القرآني والحديث النبوي. وغير خاف على أحد خاصة، المهتمين بدراسة الحضارة الإسلامية مكانة النص بشقيه القران والسنة، مكانة النص وما يمثله من انطلاق للاستنباط أو في التصور اتجاه الحياة والإنسان والكون وحتى مجال الاجتماع..

1. ابن خلدون، ديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والبربر ومن عاصرهم من ذوي الشأن الأكبر، 1/240.

لكن مفهوم «جماعة المسلمين» من جانب آخر وبالنظر إلى موقعه اتجاه مفهوم «الاستعلاء عن الأمم» فهو مفهوم جزئي لما ينطوي عليه من معان وقيم ترتبط بشكل كبير بالاستعلاء. فادعاء الاستعلاء على الأمم، دون تحقيق شروطه والتمكن من مفاتيح الحضارة وامتلاك ناصية العلم والأخلاق والقيم التي تتوافق مع الشرع ومقاصده، يحول مفهوم«جماعة المسلمين» إلى سلاح فتاك يقضي على الأخضر واليابس بفعل الإقصاء والتكفير ومن ثم التقتيل. ومعاني الكراهية والإقصاء والقتل بعيدة كل البعد عن قيم الإسلام ومقاصده وتتنافى معه كليا.

وهو ما ينطبق على باقي المفاهيم كمفهوم «البيعة»، أو مفهوم «الإمام»، أو مفهوم «العزلة الشعورية»، أو مفهوم «الجاهلية».. من حيث كونها مفاهيم مستقلة أو من حيث ارتباطها بالمفهوم المركزي في هذه الدراسة أي مفهوم «الاستعلاء» على الأمم.

ثانيا - في تصويب المفهوم

من المهم جدا الوقوف على أهم السمات المفقودة في الخطاب الإسلامي المعاصر. لكن، لماذا هذا الاهتمام؟ وما الغاية منه؟ وما الذي نستفيده بهذا الطرح في هذا المقام؟

اتضح مما سبق أن مشكلة مفهوم «الاستعلاء» على الأمم وانحراف المفهوم عن مضمونه الايجابي إلى معاني سلبية عبرت عن ضيق في الأفق وفي التفكير وكذلك تردي أخلاقي تزكيه النظرة الاحتقارية للأمم الأخرى باعتبارها كافرة أو تعيش جاهلية وأن مآلها جهنم بغض النظر عن القيمة النسبية والإنسانية التي تتحلى بها وتقدمها للإنسانية. كل هذا حدث مع الحركة الإسلامية السياسية التي تضع نصب أعينها السلطة والحكم مع إغفال أو تناسي الأبعاد الفكرية والقيم الأخلاقية للإسلام العظيم. وهذا ما تؤكده باحثة متمرسة خبرت هذه الحركات والتنظيمات حين تؤكد: «وما استقر عندي عبر سنوات من البحث والمعايشة هو أن معظم «التنظيمات» الإسلامية هي بنية حداثية بامتياز. بعيدا عما تقوله هي عن نفسها أو كيف يصنفها غيرها: التقسيم والتعقيد وتوزيع المهام بشكل يقسم المسؤوليات ويحجب المبررات ويخلق الحجب بين المستويات، وبناء الطاعة على الثقة لا المساءلة، ومركزية القيادة، والفصل بين من هم داخل التنظيم ومن هم خارجه، وغياب الشفافية في التمويل وانعدام المساءلة في التصرف وتحمل التبعات عند الخطأ (الذي هو دوما اجتهاد مأجور)، وخلق ثقافة خاصة بالمنتمين وأدبيات خاصة بالتنظيم/الهيكل تعيد تأويل المرجعية في أصولها وتخلق نصوصا يحفظها المنخرطون بأكثر مما

يطلعون على العلوم الشرعية أو المصادر الأصيلة، بالإضافة إلى الضيق بالنقد واتهام صاحبه، وبناء معالم سلوكية تحقق الاختلاف مع الآخرين، حتى وإن خالفت أحيانا ما في الأصول من سَعة وسقطت في تقليدية كامنة غير واعية، وتحقيق الشعور المستمر بالتمايز والمفاصلة. والأهم: اعتبار الوصول إلى سلطة هو غاية التمكين واعتبار الفشل مؤامرة، والكوارث ابتلاءات لا توجب الإقرار أو الاعتذار أو المراجعة أو تنحية المسؤول عنها..»[1].

فإذا كان الأمر كذلك فإن مقياس النجاح أو الفشل هو طريقة التواصل التي تعبر عن المضمون الفكري لهذه الحركات، وهو ما نعبر عنه هنا بالخطاب.

لذلك من المفيد معرفة نقط الارتكاز المهمة في خطاب إسلامي متزن قادر على تجاوز الانحراف بالمفاهيم التي تؤثث التصور الإسلامي للحياة والاجتماع بالخصوص. بتعبير آخر لابد من البحث عن خطاب نموذجي يتبناه الفكر الإسلامي ليستطيع هذا الفكر التأقلم مع الوضع المتغير والمتحرك بسرعة فائقة مع مراعاة المبادئ والقيم الإسلامية الأصيلة التي لا محيد عنها.

إذا تحقق هذا الأمر واستطاع الفكر الإسلامي إنتاج خطاب إسلامي متزن فيه مبادئ وقيم الإسلام ومقاصده سيكون بقدرتنا التفاعل الايجابي مع الحاضر والتصالح مع الماضي والتطلع إلى المستقبل بأفضل الإمكانات والقدرات ومن ثم تفادي السقطات الفكرية التي يكون مصدرها اختلال في إدراك معاني وأبعاد المفاهيم المركزية في الفكر الإسلامي.

[illegible]

والضلال في الفهم والإدراك للمفاهيم الكبرى المؤسسة للفكر الإسلامي. وبذلك نرى أن أهم مميزات الخطاب الإسلامي المعاصر يمكن تلخيصها في الآتي:

أ. سمات الخطاب الإسلامي المعاصر

قامت الرسالة السماوية التي جاء بها سيد الخلق سيدنا محمد ﷺ على التبليغ والبيان. فقد كرس حياته وجهوده لتبليغ هذه الدعوة إلى الناس بالأسلوب الأمثل ليس تنصته مقصد إنقاذهم من النار ومن عذاب الله بداية، ثم ليكونوا بعد ذلك جنودا من جنود هذه الدعوة حتى تصل إلى كل الآفاق الممكنة. ولما كان رسول اله ﷺ هو القدوة الأولى بالنسبة لنا في كل شيء فإنه من

1. هبة رءوف عزت، **نحو عمران جديد**، الشبكة العربية للأبحاث والنشر. بيروت، ط.1، 2015م. ص:189. 190.

الواجب اقتفاء أثره في الدعوة الإسلامية والاهتداء بهدي القرآن الكريم ومقاصده حتى نكون على بصيرة ورشاد.

وخطاب الجماعات الإسلامية المعاصرة في مراحل متعددة غابت عنه أهم ملامح وسمات هدي النبي ﷺ وتوجيه المقاصد لذلك جانب الصواب في مجالات شتى. يهمنا هنا الوقوف على بعض الملامح الكبرى التي تشكل خطابا إسلاميا ناجحا بإمكانه تحقيق مقاصد الحضارة الإسلامية. ولاشك أن هذه السمات متعددة غير أننا نركز على الآتي والذي يناسب المقام.

أ. غياب النظرة الكلية

ميزة خطاب القرآن الكريم الموجه إلى البشرية هي النظرة الشاملة المهيمنة على الرسالات وعلى الإنسانية ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُؤْمِنَٰتُ يُبَايِعْنَكَ عَلَىٰٓ أَن لَّا يُشْرِكْنَ بِٱللَّهِ شَيْـًٔا وَلَا يَسْرِقْنَ وَلَا يَزْنِينَ وَلَا يَقْتُلْنَ أَوْلَٰدَهُنَّ وَلَا يَأْتِينَ بِبُهْتَٰنٍ يَفْتَرِينَهُۥ بَيْنَ أَيْدِيهِنَّ وَأَرْجُلِهِنَّ وَلَا يَعْصِينَكَ فِى مَعْرُوفٍ فَبَايِعْهُنَّ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُنَّ ٱللَّهَ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ (المائدة: 50)، وقد أفاد القرطبي أن مهيمنا هنا بمعنى عاليا ومرتفعا[1]. وذهب الزمخشري إلى أنها بمعنى رقيبا[2].

والقصد من النظرة الكلية النظر إلى قضايا الإنسان وقضايا المسلمين نظرة شاملة تهتم بالأصول والقواعد ولا تنزل إلى جزئياتها وتفريعاتها فتفقد البوصلة وينعدم لديها السداد بالصواب.

[illegible] ما يصيب الخطاب الإسلامي عند فقدان النظرة الكلية البحث وراء الجزئيات والتفاصيل ظنا منه أن هذا هو المقصود فيبتعد وينشغل عن الكليات والأصول فيضطرب منطقه وينحرف منهجه فيخلط بين الثابت والمتغير، والمقبول والمردود، والسنة والبدعة، والفردي والجماعي، وفرض العين وفرض الكفاية. آنذاك يميل إلى الارتجال عوض التخطيط والموسمية عوض الاستمرارية.. فيفقد المعايير الدقيقة في الأخذ والترك، والميل إلى الإطلاق والتحيز للذات أو للحزب أو للفئة أو للطائفة دون أي سند شرعي واضح[3].

إن غياب النظرة الكلية في الخطاب الإسلامي قزمت اهتماماته فصار أقصى ما يتمناه كثير

1. القرطبي، **الجامع لأحكام القرآن**، 210/6.
2. الزمخشري، **الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل**، 640/1.
3. طه جابر العلواني، **مقاصد الشريعة**، دار الهادي- بيروت، ط.1، 2001م، ص:130. 131.

من الدعاة أو الأتباع من الأمة الإسلامية هو نجاح حزب سياسي إسلامي في دولة ما. والحقيقة أن نجاح حزب بتصور إسلامي أصيل لا تخفى مكاسبه وعودته بالنفع على الأمة بشرط وضع هذا النجاح في نصابه الحقيقي، وهو ما يغيب حتى صار العمل الإسلامي والدعوة الإسلامية محصورة في العمل السياسي واللهث وراء المقاعد البرلمانية والسعي الحثيث نحو الأصوات في غياب البناء الحضاري الشامل الذي يؤهل الأمة لأداء دورها المتمثل في الشهود على الإنسانية.

يقول مالك بن نبي رحمه الله تعالى: «لا أدري إن لاحظت. ولكن كان بإمكاني أن ألاحظ... أن النخبة الإسلامية قد استولى عليها حب الظهور في المراتب السياسية، فقد أهملت المشكلات الرئيسية التي يواجهها العالم الإسلامي اليوم، بينما لو كان لهذه النخبة نصيب من الإدراك والنزاهة والتواضع لحلت تلك المشكلات منذ ثلاثين سنة. ولكن القوم يتصارعون على أن يصبحوا (زعماء) و(أبطال) المعارك الانتخابية، فسلكوا بشعوبهم ملتويات السياسة ومنعرجاتها بدعوى أنهم يختصرون الطريق. في حين أنهم زادوا في طولها»[1]. للإشارة فهذا النص من كتاب «مذكرات شاهد للقرن» كان قد كتب في ستينيات القرن الماضي وهو يصف حال النخبة الإسلامية في تلك الفترة،وإن وضعها قد استمر على تلك الحالة إن لم يكن قد استفحل أكثر.

والمنهج النبوي الأصيل يتميز بتصوره الكلي للدعوة الإسلامية، فغياب هذه الرؤية «.. وعدم فقه مقاصد التعامل مع الحالات المتنوعة، من الواقع، وأسباب التركيز عليها، أدى ببعض المفكرين إلى اختلال في [illegible] الرؤية، [illegible] النسب، وبروز فرق خارجة، وتيارات فكرية، لا تتفق مع [illegible] المنهج النبوي، [illegible] بعض الجزئيات [illegible] من [illegible]، وتعميمها على المنهج كله، فاضطربت الأولويات، واهتزت النسب، وظهرت الثنائيات المتناقضة، والتعسف في التفسير والتأويل المذهبي، لا المنهجي، وأصبحت القواعد والأصول المذهبية، كلامية كانت أو فقهية، هي المعيار لتفسير النص والتحكم بمقاصده، وهو ما لم يعرفه تنزيل الإسلام النموذجي في خير القرون»[2].

والتبعيض أو التجزيء في الرؤية التي تحكم الخطاب الإسلامي تأثيرها ليس فقط على الدعوة وعلى خطابها ولكن هذا التأثير يمتد إلى المخاطبين والذين يصلهم هذا الصنف من الخطاب. لذلك فإن «.. عدم استيعاب الصورة الكلية، أو التحقق بالرؤية الشاملة للخطاب

1. مالك بن نبي، **مذكرات شاهد للقرن**، دار الفكر - دمشق، ط.2، 1984م. ص:228.
2. عمر عبيد حسنة، **من فقه التغيير: ملامح من المنهج النبوي**، المكتب الإسلامي - بيروت، ط.1، 1995م، ص:36.

الإسلامي.. والقدرة على إدراك طبيعة هذا الخطاب وتنوعه ومواصفاته لكل حالة يتعامل معها أو يعالجها، ويكون عليها المخاطَبون، أدى إلى نوع من التفكيك والتجزيء والانتقاء والنظرة الذرية الجزئية، ومن ثم أوصل الكثير إلى غيبة التوازن وغياب ضبط النِّسب، وإدراك الحالات ومتطلباتها..وكان من نتيجة ذلك، الارتكاز إلى بعض الجوانب أو الجزئيات أو الحالات الخاصة التي استدعت،الخطاب المناسب لها، وتعميمها على الخطاب كله، وعلى جميع الحالات التي يكون عليها المخاطبون بحيث لا يُرى من الخطاب الإسلامي إلا لونا واحدا. ولا يخلو هذا التعميم..من الكثير من التعسف والتكلف»[1].

إن اعتماد الخطاب الإسلامي الرؤية الكلية المنطلقة من التصور الإسلامي السليم سيكون رصيدا مهما وذخرا عظيما لتجاوز الكثير من العقبات والمثبطات التي كانت ولا تزال تعيق نجاح الدعوة الإسلامية لاختراق مجالات عدة غفلتها ولم تضعها ضمن اهتماماتها وأولوياتها. وقد يكون هذا من أهم أسباب تخلف القيام بدور الشهود الحضاري، الذي أنيط بالأمة الإسلامية، على الإنسانية.

ب. إهمال المآل

الشريعة الإسلامية تراعي المآل وتحتاط له. ويؤكد هذا عديد النصوص من الكتاب والسنة النبوية. وترتب على هذه المراعاة في الشريعة الإسلامية اهتمام الفقهاء والأصوليين بالمآل. فـ «الفعل يشرع لما يترتب عليه من المصالح، ويمنع لما يؤدي إليه من المفاسد. وإن المجتهد إذا أداه اجتهاده إلى التوصل إلى معرفة المصلحة التي من أجلها شرع الفعل، أو المفسدة التي من أجلها منع، فإنه يحكم بمشروعية هذا الفعل طالما كان محققا للمصلحة التي قصد به تحقيقها، فإذا كان الفعل في بعض الحالات، غير محصل لهذه المصلحة، أو كان مع تحصيله لها، مفوتا لمصلحة أهم أو مؤديا إلى حدوث ضرر أكبر، منع المجتهد منه»[2].

وفي القواعد الأصولية صاغ العلماء جملة من القواعد التي انبنت على مراعاة المآل، ومنها: «الأمور بمقاصدها»[3] فـ «الحكم على تصرف الإنسان بكونه واجبا أو حراما أو مندوبا أو مكروها أو مباحا، أو بكونه مثابا عليه أو معاقبا. كل ذلك إنما يكون تابعا لقصد المكلف وهدفه

1. عمر عبيد حسنة، في **منهجية الاقتداء**، المكتب الإسلامي - بيروت، ط.1، 1997م، ص:132 - 133.
2. حسين حامد حسان، **نظرية المصلحة في الفقه الإسلامي**، مكتبة المتنبي - القاهرة، 1981م، ص:194.
3. جلال الدين السيوطي، **الأشباه والنظائر في الفروع**، دار الفكر - بيروت، د.ت، ص:6. أحمد بن الشيخ محمد الزرقا، **شرح القواعد الفقهية**، دار القلم - دمشق، ط.3، 1973م، ص:47.

من وراء ذلك التصرف»[1].

«الضرر يزال»[2] «يجب إزالة الضرر بعد وقوعه، كما يجب دفعه قبل وقوعه.. ومن أمثلة هذه القاعدة.. إذا أصابت آكلة يد إنسان أو رجله وخشي أن يسري المرض إلى باقي جسمه، وجب عليه قطع العضو المتآكل إزالة للضرر ودفعا له عن باقي الجسم»[3]، «لا ضرر ولا ضرار»[4]، «درء المفاسد أولى من جلب المصالح»[5]. «المشرف على الزوال هل يعطى حكم الزائل»[6].

وإذا كان «النظر في مآلات الأفعال معتبر مقصود شرعا كانت الأفعال موافقة أو مخالفة. وذلك أن المجتهد لا يحكم على فعل من الأفعال الصادرة عن المكلفين بالإقدام أو بالإحجام إلا بعد نظره إلى ما يؤول إليه ذلك الفعل مشروعا لمصلحة فيه تستجلب أو لمفسدة تدرأ..»[7]، فإن الخطاب الإسلامي إذا لم يأخذ بعين الاعتبار المآل في تخطيطه وفي استراتيجيته سيظل يتخبط في ارتجاليته ليحصد الفشل بعد الفشل وإن كان في كثير من الأحيان يظن أنه يجني النجاح. وأصول الفقه فإنها أيضا، بالإضافة إلى كونها منهج نظر في فهم النص الشرعي، منهج علمي أنتجه العقل المسلم يمكن الاقتداء به في مجالات متنوعة منها هنا الدعوة والخطاب الإسلامي. وبالفعل فإن مراعاة المآل سيساعد على إنتاج خطاب دعوي رصين يستند إلى ثوابت الإسلام العظمى ويركز على أولويات المرحلة دون إغفال مستقبل الدعوة والإنسان المخاطب. وذلك «..لطبيعة هذا العصر وخصائصه وكثرة حوادثه وضخامة النتائج المترتبة على ذلك وتنوعها وتداخلها، فبوسع المجتهد الفردي أو المؤسسة الاجتهادية أن تقدر نتائج كثير من الأفعال الإنسانية ومآلات كثير من الحوادث والوقائع لتحكم عليها بحسب تلك النتائج والمآلات، وبحسب مناسبة تلك النتائج بمقاصد الشرع وغاياته..»[8].

---

1. محمد صدقي، **موسوعة القواعد الفقهية**، مؤسسة الرسالة، ط.1، 1997م، 125/2.
2. ابن نجيم، **الأشباه والنظائر**، تحقيق: محمد مطيع الحافظ، دار الفكر ـ دمشق. ط.3، 1983م، ص:22. وأحمد الندوي، **القواعد الفقهية: مفهومها، نشأتها، تطورها، دراسة مؤلفاتها، أدلتها، مهمتها، تطبيقاتها**، دار القلم ـ دمشق، ط.2، 1991م، ص:184.
3. محمد صدقي، **موسوعة القواعد الفقهية**، 261/5.
4. محمد تقي الفقيه، **قواعد الفقه**، دار الأضواء ـ بيروت، ط.2، 1987م، ص:184.
5. السبكي، **الأشباه والنظائر**، تحقيق: عادل أحمد عبد الموجود والشيخ علي محمد عوض، دار الكتب العلمية ـ بيروت، ط.1، 1991م، 105/1.
6. الزركشي، **المنثور في القواعد**، تحقيق: تيسير فائق أحمد محمود، مراجعة عبد الستار أبوغدة، وزارة الأوقاف ـ الكويت، ط.1، 1982م، 166/3.
7. أبوإسحاق الشاطبي، **الموافقات في أصول الشريعة**، تحقيق: عبد الله دراز، دار إحياء التراث العربي ـ لبنان، ط.1، 2001م، 4/ 153 ـ 154.
8. نور الدين مختار الخادمي، **أبحاث في مقاصد الشريعة**، مؤسسة المعارف ـ بيروت، ط.1، 2008م، ص:68.

لقد ضيعت الأمة الإسلامية العديد من الدول في المرحلة المتأخرة لأنها لم تحسن مراعاة مآل العديد من تحالفاتها أو حينما لم تحسن تدبير خلافاتها مع جيرانها ولم تدقق في عدوها الحقيقي.. ومع مرور الوقت تبين سوء تدبيرها لأنها لم تراع مآل تحالفاتها ومآل اختيار أعدائها.. وكم من مصلحة عاجلة هي مضرة في مآلها، وكم من تحالف آني هو تفكك أكيد في المستقبل.. ومع ذلك التقمت الدعوة الإسلامية الطعم مع الأسف الشديد.

وهذا أيضا من أهم مظاهر الخلل الذي أصاب العقل المسلم عموما وخطاب الدعوة الإسلامية المعاصرة، فغيبت من مخططاتها العديد من الأولويات وكذلك تخلت عن العديد من الأهداف التي لم ترها ولم تفكر فيها أصلا، أو ظنت أنها بعيدة المآل.

ج. عدم اعتبار البعد الإنساني

البعد الإنساني بعد مهم في الشريعة الإسلامية، وقد كان حاضرا في عهد العصمة وعهد النبوة وفي وقت الصحابة والجيل الأول من أجيال الأمة الإسلامية. ويكفي أن نعرف أن آيات عديدة وغير قليلة تبتدئ بـ ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ﴾ في خطاب القرآن الكريم.

ولابد من الإشارة إلى قضية نراها مهمة جدا، وهي أن استحضار هذا البعد في الشريعة الإسلامية ليس وليد ضغط الإعلام الغربي وفوبيا الفكر الغربي المتخوف أصلا من الإسلام وإن كان يجهله ويجهل مراميه. كما أن اعتبار هذا المفهوم، الإنساني، لا علاقة له بدفع تهمة الوحشية والتوحش عن الإسلام العظيم، ذلك لأن هذا الضغط الإعلامي والتخويف من الإسلام وتهمته بالوحشية والعداء للرحمة سيزول [illegible] وأن ذلك [illegible] المآل الذي سبق الحديث عنه دائما في سمات الخطاب الإسلامي.

إن البعد الإنساني بعد أصيل في هذا الدين، وللأسف الشديد فقد أغفلته الدعوة الإسلامية والفكر الإسلامي المعاصر مما أثقل كاهل هذا الفكر وهو يحاول الاقتراب من الناس ومن المجتمعات الأخرى البعيدة عن عالمنا. «...فالمتتبع للآيات التي تخاطب ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ﴾ أو ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ﴾ لا تقتصر على الدعوة إلى الإيمان وتدلل عليه، وإن كان هذا هو الأغلب الأعم. ولكنها تدعو كذلك ضمن خطابها إلى أصول كلية لا تتوقف الاستجابة لها على الإيمان المسبق، لأنها تعتمد على العقل والمنطق وتخاطب الفطرة وتدعو إلى ما فيه مصلحة عامة للبشر لا ينازع فيها أحد...»[1].

1. جمال الدين عطية، **نحو تفعيل مقاصد الشريعة**، دار الفكر ـ دمشق، ط.1، 2001م، ص:165.

إننا نقصد هنا بالبعد الإنساني في الخطاب الإسلامي توسيع اهتماماته لتصل إلى اهتمامات البشرية جمعاء والمساهمة في حل مشاكلها والتخفيف عنها بحيث أن الدعوة الإسلامية ليست حكرا على العرب أو المسلمين وحدهم. بل هي أمانة في أعناقهم ومكلفون بأدائها وإيصالها إلى كل الناس في كل مكان بغض النظر عن اللون واللسان والمعتقد والمكان..خاصة و«أن حماية إنسانية الإسلام، هي مقصد الشريعة وغايتها، وذلك أن الشريعة، إنما جاءت لتحقيق مصالح العباد، في معاشهم ومعادهم، وأن مصالحهم لا تتحقق إلا بحماية الكليات الخمس..وهي في الحقيقة، حقوق الإنسان الأساسية التي لا تتحقق إنسانيته، وتحفظ كرامته، إلا بتوفيرها، وحمايتها..»[1].

وإذا كان الله تعالى قد أمر نبيه نوح عَلَيْهِ السَّلَامُ بصنع فلك لإنقاذ الحياة حين قال: ﴿فَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِ أَنِ اِصْنَعِ اِلْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا فَإِذَا جَآءَ أَمْرُنَا وَفَارَ اَلتَّنُّورُ فَاسْلُكْ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ اِثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ اِلْقَوْلُ مِنْهُمْ وَلَا تُخَاطِبْنِي فِي اِلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ إِنَّهُم مُّغْرَقُونَ﴾ (المؤمنون: 27)، فإننا أيضا مطالبون بفلك لإنقاذ الناس من المشاكل الموجعة والحارقة التي تهددهم في وجودهم. وهذا الفلك في تقديرنا لن يكون إلا خطابا إنسانيا يرتكز على الثوابت في الشريعة ويراعي مقاصد القرآن الكريم، وذلك من أجل تحقيق الدور العظيم الموكول للأمة الإسلامية دور الشهود على البشرية[2].

هذه بعض السمات المهمة في الخطاب الإسلامي المأمول، وهي بالأساس ترتكز على الشريعة الإسلامية التي هي المصدر، كما تهتدي بهدي المقاصد الشرعية التي هي في الحقيقة بمثابة بوصلة تحدد الوجهة الفكرية للخطاب، وبذلك فنسبة الانسياق أو الانحراف في الفهم والإدراك ستقل أن لم تندثر كليا.

2. إعادة تصويب مفهوم «الاستعلاء» على الأمم

تشكل عملية تصويب المفاهيم أو إعادة بنائها حلقة مركزية في بناء وعي سليم لدى أفراد وأبناء الأمة وكذلك لدى الفكر الجمعي للأمة. وفي تقديرنا فهي تأخذ مصداقيتها أو مشروعيتها من طبيعة الدين الإسلامي الذي يمثل بالنسبة للمسلمين معتقدا وتصورا للحياة أكبر من الديانات الأخرى التي تنحصر في أماكن العبادة فقط. ذلك أن الدخول إلى الإسلام والاقتناع به ينطلق من الإيمان بالله ورسوله وهو ما يعرف بالشهادتين. ومقتضى الشهادتين أن يشهد

1. عمر عبيد حسنة، **حتى يتحقق الشهود الحضاري**، المكتب الإسلامي، دمشق، ط.1، 1991م، ص:143.
2. محمد شهيد، **مراجعات في الفكر المقاصدي**، سلسلة روافد، الكويت، عدد:117، ط.1، ماي 2015م، ص:159.

المسلم بأن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله. وفيه عملية هدم وتفكيك لكل الآلهة غير الله (أشهد أن لا إله إلا الله)، ثم عملية بناء وتركيب وتصويب للمفاهيم المغلوطة (أشهد أن محمدا رسول الله).

وأمام الخلط والتشويه في المفاهيم الذي تعرضت له الأمة جراء الاستعمار والقابلية له أيضا، وكذلك جراء الغزو الفكري الكبير الذي اجتاح الأمة وأيضا للقابلية له، فإنه لزاما على الفقهاء والعلماء والمثقفين، وكل المساهمين والناهضين بأعباء الخروج بالأمة من الوهن والضعف الفكري والثقافي الكبير الذي تعرفه، التصدي لعملية إعادة تصويب المفاهيم التي تعرضت لتشويه كبير.

ونسارع إلى القول أن من أكبر معيقات النهوض هو الغبش الكبير الذي عرفت المفاهيم الأساسية في الثقافة الإسلامية والتشويه والتبديل الذي لحق بها. حيث اختلطت الأمور على الخاصة قبل العامة فلم تستطع تبين الصواب من الخطأ ولا المبتدأ من النهاية ومن ثم صعب تحديد الأولويات وترتيبها لإمكانية النهوض والخروج من الأزمة والدوامة الخطيرة التي تعيشها الأمة. والحالة هذه سيبقى التخبط سيد الموقف ويكون الارتجال هو المسيطر على العقول والنفوس، وسيطغى الارتباك على الجميع مما يعقد عملية الإحياء والبعث والنهضة التي تنتظرها الأمة. وهكذا فإنه «..لما كان العقل المسلم قد أصيب بكسور خطيرة في العصر الراهن، ولما كان الإسلام نفسه قد أولى العقل تلك الأهمية القصوى التي تكاد تكون بداهة من البداهات.. فإن النتيجة الطبيعية، غير المتعسفة، أن يكون (التأكيد) على إعادة التشكيل العقلي في إطار إسلامي، ضرورة ملحة وأمرا محتوما...»[1]

لقد سقطت الأمة في فخ الخلط واللبس والغبش في فهم واستيعاب المفاتيح الحقيقية للنهوض. وفي تقديرنا فالمفاتيح الحقيقية الأولى هي المفاهيم الصحيحة والسليمة إذا أحسن قراءتها وفهمت على ضوء الواقع مع مراعاة المبادئ.

والحقيقة أن جملة مفاهيم تحتاج إلى إعادة تصويب وبناء من قبيل العبادة، هل هي طقوس وشعائر تؤدى في معزل عن البناء والتأسيس للحضارة والعمران؟

والقضاء والقدر، هل معناه الاستسلام للقدر والاكتفاء بمراقبة الوضع أم من الإيمان به النهوض والوقوف من اجل تغيير الوضع السيئ إلى الأفضل؟

---

1. عماد الدين خليل، **حول إعادة تشكيل العقل المسلم**، كتاب الأمة ـ قطر، عدد:4، رمضان 1403هـ. ص:25.

وقيام الليل، أليس سنة في مقابل إحياء النهار والعمل من أجل الأمة والإنسانية التي هي أساس العبادة؟ ألا نحتاج إلى قيام النهار في الوقت الحالي مع عدم إنكار دور قيام الليل في تزكية النفس وتطهيرها؟

والمفاهيم التي تحتاج إعادة التصويب كثيرة ومتعددة ويهمنا هنا مفهوم «الاستعلاء» على الأمم الذي نحن بصدد إعادة تصويبه بعد تفكيكه. وهنا لابد من التذكير بان هذه العملية في عمومها غير يسيرة وتحتاج إلى كثير من الروية والتعقل وهي تدخل في إطار إعادة تشكيل العقل المسلم. وهي قضية شائكة لابد من الإحاطة بها من جوانب متعددة. وهو ما يقرره عمر عبيد حسنة حين يرى أن «.. محاولة إعادة ترتيب العقل المسلم. أو إعادة تشكيله أو صياغته، ومنحه القدرة على التخلص من بعض القيود والأسوار. قضية تجد في طريقها الكثير من الصعوبات والركام الذي قد يلبس الأمور ويغيب الرؤية الصحيحة للأشياء، والقدرة على إبصارها ومن ثم تصنيفها. إنها تتعلق بصميم المشكلة الثقافية التي نعاني منها بعد أن زرعت في نفوسنا القابلية لها وتواضعت عليها القرون.

لذلك كان لا بد من المعالجة المنهجية الحكيمة المتأنية الناضجة، ولا بد من تناول القضية من أكثر من طرف وإلقاء أكثر من ضوء إضافي عليها واستعمال أكثر من وسيلة، والصبر والاحتمال لما يمكن أن يحدث من خطأ في المقايسة والموازنة، ومن عجز الإبصار وعثرات على الطريق. ولكن مع ذلك تبقى القضية ملحة بعد هذا الواقع الثقافي المتعفن الذي انتهينا إليه والذي عمر بيننا [illegible] التعميم»[1].

وبالرجوع إلى مفهوم «الاستعلاء» على الأمم، فإنه من الضروري الإتيان على المفاهيم المفككة عنه من أجل إعطائها قيمتها التي نرى أنها حقيقية أو على الأقل أقرب إلى الصواب ومن ثم محاولة إعادة تصويبها.

أ. «**جماعة المسلمين**»

مما جاء في معنى الجماعة ضرورة التمسك بها وأن الخارج عنها أو المتخلي عنها هو في حكم الكافر أو هكذا يزعم كثير من الناس عن حسن نية أو عن سوئها. ومهما يكن الأمر فإن الرجوع إلى فهم العلماء للنص مهم جدا من أجل إعادة تصويب المفهوم.

1. عمر عبيد حسنة من تقديمه لكتاب حول: **إعادة تشكيل العقل المسلم**، ص:8. 9.

جاء في تعليق العيني على الحديث قَوْله: جَاهِلِيَّة أَي: كموت أهل الْجَاهِلِيَّة حَيْثُ لم يعرفوا إِمَامًا مُطَاعًا، وَلَيْسَ الْمُرَاد أَنه يَمُوت كَافِرًا بل أَنه يَمُوت عَاصِيا»[1].

وقال القسطلاني: «(مات ميتة جاهلية) بكسر الميم كالجلسة بيان لهيئة الموت وحالته التي يكون عليها أي كما يموت أهل الجاهلية من الضلالة والفرقة وليس لهم إمام يطاع. وليس المراد أنه يموت كافرًا بل عاصيًا»[2].

وقال القسطلاني أيضا: «والمراد (كما قال الطبري) من الخير لزوم الجماعة الذين في طاعة من اجتمعوا على تأميره فمن نكث بيعته خرج عن الجماعة، فإن لم يكن ثمّ إمام وافترق الناس فرقًا فليعتزل الجميع إن استطاع خشية الوقوع في الشر، وهل الأمر للندب أو الإيجاب الذي لا يجوز لأحد من المسلمين خلافه»[3]. وقال بدر الدين العيني: «فقال بعضهم: هو أمر إيجاب بلزوم الجماعة وهي السواد الأعظم»[4].

يتضح من الأقوال السابقة أن ثمة عملية اختطاف لهذا المفهوم وإخراجه عن مدلوله العام وإقحام الحلال والحرام والتكفير فيه دون دليل. فإذا كان الاستمساك بمفهوم «جماعة المسلمين» القصد الأعظم منه الانحياز إلى جهة الحق والصواب الذي تلتزمه الأمة والجمهور في الحالات العادية، فإنه بعض الأحيان تكون هذه الجماعة، و خاصة في حالة الانكسار والتراجع، فئة قليلة من الناس تلتزم الحق والصواب في الفهم والهدف الذي ينشده الإسلام ويسعى لتحقيقه.

كما أن الخروج عن الجماعة لا يترتب عنه الكفر والخروج من الملة، خاصة إذا علمنا أن الكفر تترتب عليه أحكام شرعية خطيرة قد يكون منها عدم تغسيل مرتكب هذا الخروج عند وفاته وقد لا يدفن مع المسلمين وقد لا يرثه احد.. وللأسف الشديد العديد من الفاعلين في الساحة لا يقدرون هذه الأمور فيلقون بالفتاوى على مسمع من الناس دون تحقيق وتدقيق وترو، وهو ما ساعد على تفشي التكفير والمسارعة إلى القتل والاقتتال.

بهذا فإن الجماعات الموجودة في الساحة الآن لا تمثل جماعة المسلمين في شيء لعدم انضباطها لهذا الفهم، وحتى الخارج منها لا يحق تكفيره، ومن ثم فما الواحدة منها سوى «جماعة من المسلمين» وليس «جماعة المسلمين»، أي هي عبارة عن اجتهاد أو عبارة عن فهم وقراءة للإسلام

1. بدر الدين العيني، عمدة القاري شرح صحيح البخاري، دار إحياء التراث العربي. بيروت، 178/24.
2. القسطلاني، إرشاد الساري لشرح صحيح البخاري، المطبعة الكبرى الأميرية . مصر، ط.7، 1323هـ. 169/10.
3. القسطلاني، إرشاد الساري لشرح صحيح البخاري، 184/10.
4. بدر الدين العيني، عمدة القاري شرح صحيح البخاري، 195/24.

وليس الإسلام في حد ذاته.

ب. «الإمام» و«البيعة»

اغلب المهتمين بالإمام أو الخليفة أو السلطان أو الحاكم الذي يملك زمام أمور الأمة ويدبر أمورها الداخلية والخارجية يهتمون بشروط من قبيل العلم والشجاعة وحتى القرشية، وإن كانت هذه الأمور محل نقاش، وقد ينسون أو يجهلون وربما يتجاهلون أمورا مرتبطة بالأمير في غاية الأهمية.

. الأولى ما يرتبط بالانفراد بالتسيير من قبل شخص واحد. فإذا كانت في الماضي بساطة الحياة وطبيعة الناس والمؤسسات التي كانت آنذاك تجعل من الفرد الواحد في حالات متعددة قادر على تدبر أمره لوحده أو ربما يطلب مساعدة أو استشارة في أحيان أخرى، فإن طبيعة الحياة المعاصرة والتحولات المذهلة على كل المستويات تجعل من هذا الشرط مجرد حلم وخيال يستحيل تطبيقه مما يتطلب عقلية جماعية منفتحة على الآراء والأفكار المتعددة من اجل الوصول إلى الحل المناسب في الواقعة أو النازلة السياسية المحددة.

. الثانية تتعلق بخاصية مهمة تحدث عنها بعض العلماء حين أكدوا على ضرورة امتلاك الإمام القدرة والقوة والغلبة لإرغام الخارجين عن الجماعة أو المنشقين عن الوحدة الوطنية من التزام وحدة الصف. وهو ما يؤكده ابن خلدون «أن يكون جريئا على إقامة الحدود واقتحام الحروب بصيرا بها كفيلا بحمل الناس عليها عارفا بالعصبية وأحوال الدهاء قويا على معاناة السياسة ليصح له بذلك ما جعل إليه من حماية الدين وجهاد العدو وإقامة الأحكام وتدبير المصالح»[1].

وهكذا فإن الأمير الذي لا يملك سلطة نافذة وآراء مطبقة وأعمال منزلة على أرض الواقع هو أمير من ورق، وبهذا فهو لا يصلح لقيادة الأمة. ولعل من أهم المواقف المشهودة في التاريخ التي كان لها ما بعدها في تاريخ الإسلام، موقف الخليفة الصديق رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ لما أمر بخروج جيش أسامة فناقشه عمر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ مبينا أن وضع المسلمين لا يتحمل تشتيت جهودهم والأعداء يتربصون بهم، فأجابه قائلا: «لو لعبت الكلاب بخلاخيل نساء المدينة، ما رددت جيشا أنفذه رسول الله ﷺ»[2]. وكذلك لما عزم على مقاتلة المرتدين لم يحبذ ذلك عمر فنصحه بالصبر عليهم والتريث عسى أن يتم وجود حل جديد. فأجابه بقولته الشهيرة: «والله لو منعوني عقالا كانوا يؤدونه إلى رسول

1. ابن خلدون، ديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والبربر ومن عاصرهم من ذوي الشأن الأكبر، 242/1.
2. يحيى العامري، بهجة المحافل وبغية الماثل في تلخيص المعجزات والسير والشمائل، دار صابر ـ بيروت، 100/2.

الله ﷺ لقاتلتهم عليه والله لأقاتلن من فرق بين الصلاة والزكاة»[1].

وعليه فالكلمة الأخيرة والحاسمة هي للأمير أو الإمام. وذلك بالطبع بعد الاستشارة وبعد سلوك طرق واليات اتخاذ القرار التي تقررها مؤسسات الدولة. فهو صاحب القوة والمنعة. وهو الداعي إلى الجهاد. بالإضافة إلى باقي الوظائف الأخرى من حراسة الدولة والدين وإقامة الحدود وجباية المال واسترجاع الحقوق... «وهذا المقصد أساس بالنظر إلى الهرج والمرج الذي يعرفه المسلمون. فكل من تزعم عصابة من الناس زعم انه إمام وأمير وادعى انه هو صاحب الحق. حيث ظهرت جماعات تضم في صفوفها العشرات أو المئات.. ومع ذلك تنصب نفسها جماعة المسلمين. في الوقت الذي لا يقدر على إقناع اقرب الأقربين إليه بأرائه فما بالك بباقي المسلمين»[2].

وهذا لا يعني بأي حال من الأحوال الحجر على الناس وكتم أنفاسهم ومنعهم من المعارضة السليمة الهادفة... بل المقصود من ذلك أن الإمام - حفاظا على السلم الاجتماعي - إذا رأى من يفضل الخروج عن الجماعة وقراراتها ويستفرد بقرارات أخرى من عنده سواء كان فردا أم جماعة، لابد له من التصدي له وإلزامه بالرجوع إلى الحق والإذعان له، كان صاحب قوة وعصبة أم كان وحده واعزلا. وبذلك فان أول مقصد من تنصيب الإمام هو جمع الشمل ولم الكلمة ودرء الفرقة والقضاء على التشتت والتفرقة لما فيه من خطورة على حياة الأمة بالكامل.

إن الإمام الذي لا يملك من القوة ومن الشجاعة ومن الأنصار العدد والعدة الكافيين على [illegible] على رجوع العصاة والمنشقين إلى دائرة الجماعة المسلمة فقد فقد أهم خصائصه فهو ضعيف فاشل لا يستطيع النهوض بأعباء الأمة.

إننا أمام مفاهيم ملغومة تحتاج إلى النظر العلمي الرصين حتى يرفع عنها اللبس الذي أخرجها من موقعها السليم ليقذف بها في مجال التوظيف الضيق من قبل الأحزاب والجماعات التي اختارت العمل السياسي الضيق المفضي إلى العنف والتفريق وقد صارت منتشرة في مساحات شاسعة من عالمنا. تستغل غفلة النخبة والعامة في عدم مساءلتها ونقد مفاهيمها.

هذا الإمام المبايع وبهذه الشروط غير موجود الآن عند كل من ينتسبون أو يسمون أنفسهم

1. ابن العربي. العواصم من القواصم، المكتبة العصرية، صيدا - بيروت، 1429هـ - 2008م، ص:56 - 57.
2. محمد شهيد. في قضية الهوية: التباس المفاهيم عند الإسلام السياسي. ضمن كتاب جماعي: الدين والهوية بين ضيق الائتمان وسعة الإبداع، إشراف وتقديم: الحاج دواق، مؤسسة مؤمنون بلا حدود. 13 ماي 2016م، ص:32.

جماعات دينية أو إسلامية. فالبيعة تكون لإمام تتوافر فيه شروط وأوصاف. ومن أهمها كما سبق القدرة على إقناع المنشقين والخارجين عن السلطة للرجوع و الدخول في صف الجماعة. ناهيك عن أن الجماعات الموجودة الآن لا تتحقق فيها الشروط المطلوبة في الجماعة التي يكون الخارج عنها أثما عند بعضهم.

ثم مسألة أخرى في غاية الأهمية مرتبطة بما نحن بصدده، وهي أن الإمام المبايع من أهم خصائصه أو من أهم أدواره إعلان الجهاد. فإذا لم تتوفر فيه مقومات الإمام فإن إعلانه للجهاد لاغ ولا اعتبار له وبكلمة فهو غير ملزم. وهكذا ينهار المفهوم بكامله حيث لا يمكن إعلان الجهاد من قبل إمام غير شرعي، وهذا الإمام غير شرعي ومن ثم لا تجوز مبايعته، وإذا لم تجز مبايعته فإن «جماعة المسلمين» غير موجودة أصلا ومن ثم فإن القول أو الحكم على الخارج منها بالكفر والردة غير صحيح.

وفي المحصلة ينهار أساس سميك في مفهوم «الاستعلاء» على الأمم ألا وهو مفهوم «جماعة المسلمين».

وارتباطا بهذا هناك مفهومين آخرين لم نعالجهما في هذا الفصل المخصص لإعادة التصويب، وهما مفهوم «الجاهلية» ومفهوم «العزلة الشعورية». والظاهر أن هذين المفهومين سيوظفهما المجال التداولي داخل الجماعات المتطرفة من أجل خلق سياق خاص بها يجعل [illegible] [illegible] في كل الأفكار والتنظيمات التي لا تتفق معهم في الرؤية والتصور للحياة وللاجتماع بالخصوص. ذلك أن الكفر والتكفير صفتان قبيحتان لصيقتان بالجاهلية طبعا ومن ثم تكونان جالبتان للكراهية والقطيعة معها وهو ما يؤثر فعلا في نفسية أبناء هذه الجماعات اتجاه المخالف، خاصة إذا علمنا أن الجاهلية تنطوي على معنى يفيد النعت بالجاهلية لكل مخالف للمسلم.

وسيكون أيضا لمفهوم «العزلة الشعورية» دور رئيس في تكميل هذا البغض والكراهية اتجاه كل من هو غير مسلم وهو الموصوف بالجاهلية. إذ بعد بغضه وكراهته لكل من ينتمي للجاهلية، وإعلان الحرب عليه سيكون عليه من الصعوبة بمكان الاقتراب من أبناء هذه الجماعات ومحاولة التواصل معها؛ لأنها جد محصنة بمفهوم «العزلة الشعورية» التي تنمحها شحنات العلو والسمو النفسي والشعوري عن باقي من هو غير مسلم ومن ثم من هو موصوف بالجاهلية.

وانطلاقا من هذا إن ما يروج الآن وما يستهلك ليس «جماعة المسلمين»، إنما الموجود في الساحة الآن خصوصا داخل التيارات الإسلامية «جماعات من المسلمين». فهي بذلك فاقدة الشرعية للحديث باسم كافة المسلمين. واجتهاداتها تلزمها لوحدها دون غيرها من الناس.

والذي يتحصل من هذا أن الجماعة المقصودة أي «جماعة المسلمين» هم المسلمون الذين بايعوا إماما شرعيا، يملك سلطة وقوة تلزم وتقهر الفئة المخالفة. إذا اقتضى الأمر. لترتدع وتعود إلى جادة الصواب. وهذه الجماعة هي التي لا يجوز فراقها أو التخلف عنها، حتى قال عليه الصلاة والسلام في الحديث السابق في من لم يبايع أميرها «مات ميتة جاهلية» أو دعا إلى عدم التخلف عنها حيث قال «عليكم بالجماعة».

أما المجموعات الموجودة في عالمنا الآن، أو الجماعات الإسلامية المتعددة والمترامية فهذه ليست «جماعة المسلمين» وإنما مع. حسن الظن. بها هي عبارة عن «جماعة من المسلمين». وبكلمة أميرها وإمامها غير ملزم، وطاعته غير إجبارية وغير مفروضة، ودعوة إمامها للجهاد غير ملزمة، ومن ثم فمن خالف هذه الجماعة ليس بآثم إثما يترتب عنه عقاب في الآخرة كما يعتقد. بل يحيلنا إلى الاجتهادات المتعددة داخل التصور الإسلامي بشكل عام. إذ فهم الإسلام من الوحي ومن منبعه الصافي لا يكون دائما على نفس الوجه، حتى شاغ عند البعض أنه «ليس ثمة فهم أو تمثل واحد لدين الإسلام، اللهم إلا ذاك المحفوظ في «اللوح الإلهي». أما في الواقع فلدينا إسلامات» لا إسلام واحد»[1].

ويترتب عن هذا الخطأ في الفهم ارتكاب العديد من الأخطاء القاتلة التي يذهب ضحيتها العديدون، بحيث إن التعصب للجماعة التي هي في الأساس «جماعة من المسلمين» وليس «جماعة المسلمين»، ودائما بدعوى الدفاع عن الهوية وتحقيق الشرعية ونصرة الدين، فيتم تكفير الآخر الذي هو خارج الجماعة ولو كان من المسلمين الموحدين. حتى أن بعضهم أصبح يشكك «.. في صدق قائل عبارة «لا إله إلا الله»، التي أصبحت في نظرهم غير كافية لدخول قائلها في الإسلام. وقسموا التوحيد على هذا الأساس إلى توحيد ألوهية وتوحيد وربوبية، معتمدين ذلك لتصنيف المسلمين إلى مؤمنين وكفار، أو موحدين ومشركين. والحال أن لا إله إلا الله تُجمل كل معاني الإيمان بالله وحده وحُرمتها تجعل مال قائلها ودمه حراما وإن قالها كاذبا»[2]. وهذا التعصب للرأي الواحد

1. فهمي جدعان، **الإسلام السياسي بدعة إيديولوجية وانحراف عن غائية الدين**، حوار أجراه معه موسى برهومة، مجلة: يتفكرون، عدد:1، ربيع 2013م، ص:108.
2. ماجدولين النهيبي، **لهذه الأسباب نشا العنف والتطرف عند المسلمين**، مجلة: يتفكرون، عدد:1، ربيع 2013م،

الأحد دون السماع والإنصات للآخر من بين المسلمين حتى، «..تولد عنه نشوء جماعات نصبت نفسها وصية على العقيدة، وأجازت الاقتتال بين المسلمين. ولا بد في هذا الصدد من الإشارة إلى أي جماعة أو طائفة أو توجه يتبنى فكر الإصلاح على الأساس الميزي المذكور يكون مآله الانزلاق المحتوم نحو العنف. ولا عجب أننا نجد الفكر العنيف المتطرف يخرج من رحم جماعات تدعي نشر الدعوة بوسيلة سلمية، لأن الوسيلة ليست هي الأهم، بل الأهم هو الفكر الذي يقود هذه الوسيلة ويغذيها»[1].

ج. باقي المفاهيم

والشعور بالانتماء للجماعة المسلمة الحالية ـ الذي هو في حقيقة الأمر انتماء لجماعة المسلمين فقط. كما هو الشعور بالانتماء لأي هيأة أو جماعة يعزز الانتماء للهوية، ويحمس المنتمي للانخراط في الدفاع عن هويته بشكل فطري. ذلك أن الهوية تحدد الشعور الوجودي العميق للإنسان كما تعزز الشعور العميق الخاص بانتمائه. فـ «..يمنح الانتماء الفرد غايته وأمل حياته: المسؤولية عن هوية الجماعة واستمرارية أنماط تراثها المختلفة، المادية والروحية، والأمل في أن جهوده الإبداعية والوجودية لن تذهب هباء بموته، بل ستغذي حياة الجماعة حتى بعد وفاته. ومن يكون لديه الارتباط بهويته على هذا النحو، لا يتصرف وفقا لقانون المصادفة، لأن الفرد الذي يتصرف وفقا لهذا القانون يكون مفتقدا للهوية، ومفتقدا للانتماء ومحكوما عليه بأن يعيش حاضره فحسب. [illegible] [illegible] وعادة ما يعاني مثل هذا الشخص من الحيرة فيما يتصل بهويته الذاتية»[2].

إن مفهوم «الاستعلاء» عن الأمم سينحرف عن المقصد الذي جاء في النص الشرعي والذي اتفق عليه عدد كبير من العلماء، كما وافق منطق الفطرة ومنطق مقاصد الشريعة في اللحظة الحاسمة التي سبق تحديدها، وهي اللحظة التي وقع فيها البتر أو القطع مع المشروع الإصلاحي الذي قاده جملة من العلماء والمثقفين من اجل النهوض والإصلاح، من جهة ومشروع الجماعات الدينية وخاصة حركات الإسلام السياسي والجماعات المتطرفة. وهي اللحظة التي سيتحول فيها الإسلام من دين يهدف تقويم الإنسان وتوجيهه في هذه الحياة من أجل تحقيق أهداف الشريعة

ص:104.

1. ماجدولين النهيبي، لهذه الأسباب نشا العنف والتطرف عند المسلمين، ص:105.
2. رشاد عبد الله الشامي، إشكالية الهوية في إسرائيل، ص:7 ـ 8.

ومراعاة أحوال الناس إلى مشروع ضيق الأفق اختصر فقط في إقامة سلطة سياسية لتطبيق فهم محدد للحكم وللأحكام. ويبدو أن مفكرا مهما في العالم العربي قد تأثر بهذا الأمر وكانت له ردة فعل من خلال مشاريعه الفكرية حيث يرى «أن السياسيين لم تكن تشغلهم إقامة الحوار بينهم بقدر ما كان يشغلهم الوصول إلى السلطة؛ وإذ كنت آسف لهذه الحال التي تتجه فيها الأمة إلى طلب السياسة قبل طلب الخلق الذي يدفع شرها، كنت موقنا بأنه سيأتي اليوم الذي يندم فيه النادم على إهماله للتخلق، فبادرت إلى إصدار كتاب سؤال الأخلاق، منبها على هذا النقص الشنيع الذي يحط بإنسانية الفرد ويهدد مصير الأمة؛ وها نحن اليوم نواجه المشكلتين: «فقد الحوار» و«فقد الأخلاق»؛ وعندما يفقد الحوار وتفقد الأخلاق في ذات الوقت فلا مفر من مواجهة أبشع صور العنف»[1].

3. مقاربة مقاصدية لإعادة بناء المفهوم

إن مفهوم «الاستعلاء» على الأمم قد تعرض لمسخ وتوجيه سلبي من قبل صنف غير قليل من أبناء الحركات الإسلامية المعاصرة، منها المتطرفة وكذلك المسيسة بمعنى المهووسة بما هو سياسي، تسعى من اجله وتكرس كل جهودها من أجله؛ وقد تركت وراءها القيم والأخلاق التي تمثل جوهر الرسالة الإسلامية مما يوقعها في ضيق في الأفق وحرج في الواقع مع الناس.

لذلك يكون التأسيس المقاصدي مهم جدا من اجل استعادة هذه المفاهيم ووضعها في سياقها [illegible] للدعوة الإسلامية [illegible] للأمة الإسلامية.

وانطلاقا من مقاصد الشريعة يمكن رؤية المفهوم موضع البحث والدراسة «الاستعلاء» رؤية فيها الاتزان والوسطية.. مما يقربه من الفهم الصحيح. وفي نظرنا فإن المكون الثلاثي الذي حددناه في سمات الخطاب الإسلامي المنشود يمكن أن تساعد على تجاوز العديد من الأخطاء ليس المرتكبة الآن ولكن التي يمكن ان يقع فيها الخطاب الإسلامي والفكر الإسلامي عموما.

فالنظرة الكلية التي تناقض النظرة الجزئية تمنح الفكر القدرة على تملك تصور شامل ينظر إلى الأشياء من خلال نظرة شاملة تكبر الموضوع لترجعه إلى أصوله. ومن قبيل ذلك أن يتصور كثيرون أن الأزمة التي تعيشها الأمة حاليا أزمة سياسية وانه لاسترجاع المجد الكبير الذي ضاع منها لابد من أن يكون المشروع السياسي هو المحور والأساس في العملية التغييرية. لكن

1. طه عبد الرحمن، سؤال العنف بين الائتمانية والحوارية، المؤسسة العربية للإبداع والفكر، بيروت، ط.1، 2017م، ص:10.

النظرة الكلية التي تعتمد المقاصد والشرع تنطق بمعنى آخر وبتصور مغاير. إذ ترى أن المشروع السياسي عند الأمة وفي الفكر الإسلامي لا يمثل النقطة صغيرة وصغيرة جدا؛ وذلك لأن المشروع الإسلامي الذي يطمح الإسلام إلى تحقيقه هو مشروع حضاري متكامل، للقيم والأخلاق قصب السبق وللفكر والعلم مكانة أساسية لا تضاهى.

فحركة الوحي وعملية نزول القرآن الكريم التي تمتاز بالعصمة والحكمة الربانية، تبين أهمية ما نحن بصدد تبيانه. فالنظر في أول ما نزل من القرآن الكريم، مع إدراك أن أي عمل تغييري يكون أوله هو أساس البناء الذي يأمله ويتطلع إليه. لذلك فقد كان أول ما نزل من القرآن الكريم الآيات الآتية، مع اختلاف في الترتيب لا يهمنا الآن، قوله تعالى: ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ۝ خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ ۝ اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ ۝ الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ ۝ عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾ (العلق: 1. 5)، وكذلك قوله تعالى: ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ۝ خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ ۝ اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ ۝ الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ ۝ عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾ (القلم: 1. 4)، وكذلك قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الْمُزَّمِّلُ ۝ قُمِ اللَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا ۝ نِصْفَهُ أَوِ انْقُصْ مِنْهُ قَلِيلًا ۝ أَوْ زِدْ عَلَيْهِ وَرَتِّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلًا ۝ إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا﴾ (المزمل: 1. 4).

فالآيات الأولى دعوة إلى العلم والفكر والتدبر والبناء الثقافي المتكامل، والآيات الثانية فيها دعوة إلى القيم والأخلاق العظمى، والآيات الثالثة دعوة إلى السمو الروحي وتزكية النفس.

فهذه الآيات أسس المشروع الإسلامي الذي جاءت به رسالة محمد بن عبد الله ﷺ مشروع يتأسس على العلم ويستند على تزكية النفس وسموها لتحقق نكران الذات وتتحمل مسؤولية البناء والنهوض دون انتظار الشكر والأجر في الدنيا مع التحلي بالخلق العظيم الذي يمنع كل اصطدام وتعنيف وتنفير.

والمرتكز الثاني في الخطاب الإسلامي المأمول والمنتظر الذي يمكنه المساعدة على الخروج من الوضع السلبي الذي يؤثر على عملية الفهم وتدبر المفاهيم الكبرى في المشروع الإسلامي الرسالي هو مفهوم المآل. وهذا المفهوم عند غيابه صار أبناء الحركات الإسلامية، وما يسمونه الجماعات الإسلامية المعاصرة العنيفة والمتشبعة بالفكر المنحرف الذي نحن بصدد معالجة جزء منه، لا يتجاوز نظرهم اللحظة التي يعيشونها. ففقدوا القدرة على التطلع إلى الأفق البعيد والتخطيط الاستراتيجي البعيد المدى الذي يضع ضمن اعتباراته كل العراقيل والمطبات التي

يمكن أن تواجهه ليعمل على تفاديها وتخطيها. لكنه حين ظل ينظر إلى القريب منه تحت ضغط الواقع المرير والبئيس ظل يتخبط في نفس الدوامة لا يستطيع الانفكاك عنها كالذي وقع في الدور.

إن محمدا ﷺ الذي يمثل روح الإسلام ومبادئه وقيمه وهو مطرود مطارد من قبل قريش. وقد لحقه سراقة بن مالك طامعا في الحصول عليه للظفر بالغنيمة يفاجئه ﷺ بالسؤال الآتي: «كيف بك إذا لبست سواري كسرى؟»[1]. وهو ما لم يكن يتوقعه احد إلا النبي الذي ينظر إلى الأمور بشكل مغاير لنظر الكثيرين الذين لا يرون إلى المستقبل وقد اغفلوا كل تخطيط وإعداد له. فالتفاؤل والتطلع بأمل للمستقبل خطوة مهمة لكن الأهم أن يصاحبه تخطيط واستبصار وإدراك للعقبات والمطبات التي قد تعيق الأمة لتفاديها والبحث عن أفضل السبل للوصول إلى الحلول الأنجع للخروج من الأزمة التي تعيشها.

لذلك لابد من دراسة التحالفات واختيار الأصدقاء وعدم استعداء الناس والأمم من حولنا والبحث عما نشترك فيه مع الآخرين أكثر من البحث عن التصادم وعن العدو لمقاتلته ومواجهته، فتستنزف القوة والقوى في حروب هامشية لا فائدة منها إلا الضياع والخراب. فدين الإسلام دين يجمع الشمل ويتعارف مع الناس ويتواصل معهم ولا يعاديهم أو ينفر منهم. وهذا ما لم تدركه الجماعات الإسلامية ومن يختار طريقها إلى الآن للأسف الشديد. فهي تستعدي الناس وتتطاحن معهم في قتال عنيف لا يبقي و لا يذر في الميدان العسكري والاستراتيجي. وتتخاصم مع الجماهير والتيارات الأخرى في السياسة والفكر، وفي الفن والأدب أقصت كل الألوان والأذواق الطيبة والراقية في محاولة لفرض لون واحد [illegible] بعيد عن التصور السيئ للفقه والعلم الشرعي».

وبخصوص المرتكز الثالث مرتكز «البعد الإنساني» فهو مرتكز هام خصوصا في الوقت الراهن والظرفية الحالية التي تعيشها الأمة وتعيشها البشرية. فالعالم يعيش ظرفية سياسية وإنسانية واقتصادية وفلسفية..صعبة وجد معقدة ولربما لم يسبق للبشرية أن عاشتها. فمن الناحية السياسية اشتدت الحروب وإراقة الدماء وازدادت الصراعات على الكراسي والتحكم. ومن الناحية الإنسانية تأزمت وضعية الإنسان سواء بالفقر والجوع أو بالغنى والتخمة: فالفقير دخل في دوامة البحث عما يسد به رمق العيش، والغني طغى وتجبر فعاث فسادا ولم يشعر بالفقير. من الناحية الاقتصادية ازداد الاحتكار وارتفعت الأسواق وسيطر عليها الشركات الكبرى التي

---

1. ا بن عبد البر، الاستيعاب في معرفة الأصحاب، تحقيق: علي محمد البجاوي، دار الجيل- بيروت، ط.1، 1982م، 581/2.

تبتز الإنسان. ومن الناحية الفلسفية دخل الإنسان مرحلة الضياع الفكري والشتات في الذهن فضاعت القيم والأخلاق والمعاني الراقية..

والتصور الإسلامي السليم يعتبر إخراج الإنسان من وضعه المتأزم واجب شرعي وواجب إنساني يلزم الأمة بتكاثف جهودها مع الإنسان في كل مكان بغض النظر عن دينه وعقيدته ولونه وعرقه.. خاصة وان التهديد لا يمس جهة أو فئة من الناس دون أخرى. فالبشرية مهددة في وجودها بفعل المخاطر التي تواجهها كمشاكل البيئة ومشاكل الاستهلاك ومشاكل الإنسان بشكل عام..

لذلك فالفكر الإسلامي لابد له من إنتاج خطاب سليم متزن يتضمن قراءة واعية للظروف التي تعيشها البشرية لينخرط مع أخيه الإنسان في البحث عن حل للوضع الخطير الحالي. وهو ما ظل لفترة طويلة بعيد المنال في خطاب المسلمين حين انكمشوا على ذاتهم وتقوقعوا حول مشاكلهم فلم يمتلكوا جرأة الانفتاح على العالم والتصدي للمهام الموكلة إليهم في سياق الدور المنوط بهم.

وهكذا فبالاستناد إلى هذه المرتكزات يمكن قراءة مفهوم «الاستعلاء» على الأمم قراءة مقاصدية يمكن من خلالها إعادة تصويب هذا المفهوم الذي أفقدته السياقات الجديدة والاجتهادات المؤدلجة بعده الأخلاقي كما أفقدته مقاصده الراقية.

فمفهوم «جماعة المسلمين» الذي أعطته الجماعات الدينية صفة الإلزامية والشرعية ليس كما هو مزعوم كما رأينا [illegible] من المسلمين، و«الإمامة» [illegible] ليس لها من صفة الإمامة سوى الاسم لافتقادها لشروط عديدة؛ و«البيعة» لا تكون إلا لإمام شرعي بشروط محددة لا تتحقق في مدعي الإمامة حاليا ومن ثم فالبيعة المطروحة في هذا السياق من قبل هذه الجماعات ليست شرعية ومن ثم ليست ملزمة؛ و«الجهاد» الذي تدعو له هذه الجماعات فاقد للشرعية بفعل غياب الإمام الشرعي الذي يدعو له والذي هو أيضا قد بايعته الجماعة، فلا الجماعة موجودة ولا البيعة شرعية ولا الإمام شرعي ومن ثم يبطل هذا الزعم: أما «الجاهلية» و«العزلة الشعورية» فهما مفهومان معنويان القصد منهما تقوية أفراد هذه الجماعات ودعمها نفسيا أمام خصومها ومناوئيها للالتحاق بالتنظيم والاستمساك به وقد يصل الأمر حد التعصب له مما يفتح الباب على المجهول من قتال وحروب وإسالة دماء وهدرها بدون خوف من الخالق ومن دون تقدير لكرامة الإنسان وحقه في الحياة. لينهار في الأخير البعد السلبي لمفهوم «الاستعلاء» على الأمم الذي صار مطابقا للقول بأفضلية امة الإسلام على باقي الأمم في غياب الالتزام بضوابط

وقدرات تحقيق هذا التفوق في الواقع قيما وأفعالا تجعل القول بالاستعلاء ليس هدفا في حد ذاته بقدر ما يكون الهدف هو خدمة الدين ومن ثم خدمة البشرية في ظل كرامة وقيم إنسانية.

الخاتمة

هكذا وباستحضار هذا البعد المقاصدي والمرتكز على أسس ثلاث، هي النظرة الكلية ومراعاة المآل وتحقيق البعد الإنساني، يمكن إعادة تصويب مفهوم «الاستعلاء». فالنظرة الكلية للمفهوم تدفع الأمة إلى النظر إليه في سياقات متعددة، وليس فقط النظر إليه من خلال الأمة فقط. بذلك يمكن قياس مستوى الأمة العلمي والأخلاقي والحضاري أمام الأمم الأخرى التي تدعي أفضليتها عليها واستعلاءها عليها، فإذا استحضر المقياس الشرعي والعلمي والإنساني ستتغير كثير من القناعات والثوابت إلى مجرد أنظار ورؤى قابلة للخطأ كما هي قابلة للصواب وكذلك قابلة للتصويب. إذ ذاك سينهار القول بالاستعلاء على الأمم بالنسبة لشرذمة ولو لأمة لا تملك ناصية العلم والبحث العلمي، كما أن رصيدها الأخلاقي هزيل جدا ومستوى القيم التي تدعيها لا تلتزم بها فتجعل من نفسها أضحوكة أمام العقلاء والحكماء بغض النظر عن الدين والانتماء، فتكون سببا في تلطيخ صورة الإسلام والمسلمين في عالم للصورة والإعلام سطوة وقوة كبيرتين.

وبمراعاة المآل سيخرج مفهوم «الاستعلاء» على الأمم من المفهوم الضيق الذي أقحمته فيه هذه الجهات إلى المعنى أرحب وأوسع يخرج الأمة من قوة نفسية وهمية تدعي من خلالها السيطرة والاستعلاء على باقي الأمم فيما حالها حال يصيبه التشرذم والخراب والانشطار. فأمة مستعلية على باقي الأمة هي في الحقيقة أمة قوية الجانب وذات كلمة موحدة ومتناغمة الأطراف تسعى إلى التكامل والبناء مع باقي المكونات للمجتمع العالمي.. أما الأمة المنقسمة على ذاتها المتقاتلة على أوهام السيطرة والتسلط المنعدمة الإمكانات والقدرات الحقيقة في الواقع من طاقات علمية وقيم ورؤى وتصورات مستقبلية فهي أضعف من أن تتمتع باستعلاء.

أما المرتكز الثالث مرتكز البعد الإنساني فعلى ضوئه يصير مفهوم «الاستعلاء» على الأمم مفهوما مفعما بالأبعاد الحقيقية التي يهدف دين الإسلام إلى تحقيقها. وهي أن يصير الإسلام دينا للإنسان بحكم الفطرة التي يكون عليها الناس قبل أن تملأ عقولهم بأفكار وثقافات مسيسة ومؤدلجة يكون أساسها الإقصاء وعدم الاعتراف بالمغاير والمختلف معه.

فإذا قرئ مفهوم «الاستعلاء» على الأمم من هذا الجانب الإنساني، يصبح مفهوما مطلوبا

يتبناه المسلم لكن بشروط وواجبات أساسها اتخاذ موقع علمي وحضاري ونفسي يمكن من اكتساب قيم هذا المفهوم. فاستعلاء الأمم ليس مكانا محجوزا للأمة تتمتع فيه دون مسؤولية وبدون رقيب بل هو ثمرة جهد مضني اتجاه المسلمين واتجاه الإنسان في كل مكان، فحواه خدمة الإنسان وربط الصلة به باعتبارنا نتقاسم معه العيش على هذا الكوكب الأرضي يفرحنا ما يفرحه ويعكر صفو حياتنا ما يعكر صفو حياته. فكلما اتسعت دائرة خدمتنا للبشرية كلما اقتربنا من تحقيق المعنى الحقيقي للمفهوم، خاصة «..أن المحاولات الرائدة التي قام بها علماء الأصول وبالخصوص في مقاصد الشريعة الإسلامية شكلت منطلقا مهما من اجل تحقيق المن والتعايش والتساكن والتعارف..وقد عبروا عنها بالكليات الخمس (الدين، النفس، المال، العقل، العرض..) حتى قالوا فيها أجمعت الأمم والملل والنحل على اعتبارها.

بذلك فالإنسان مهما اختلف وتنوع فهو في نهاية المطاف مجبر على البحث عن القواسم التي يشترك فيها مع أخيه الإنسان ليتمكنا من العيش في أمان وفي سلام مع تحقيق عيش كريم يليق به»[1].

هكذا بهذه الأبعاد المؤسسة على الركائز الثلاث، النظرة الكلية ومراعاة المآل والبعد الإنساني، وبعد تفكيك مفهوم «الاستعلاء» على الأمم يمكن النظر إلى المفهوم على انه مفهوم يقتضي التكليف ولا يقتضي التشريف، فهو مفهوم يدفع أبناء الأمة إلى العمل الجاد الخاضع للتخطيط ومراعاة المستقبل ليكون الاستعلاء على الأمم مكتسبا بالكد والجد وليس بالنسب والانتساب، وقد نبه عليه النبي أن دور العمل ليس من النسب فقد جاء في قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الْمُزَّمِّلُ قُمِ اللَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا ۝ نِصْفَهُ أَوِ انقُصْ مِنْهُ قَلِيلًا ۝ أَوْ زِدْ عَلَيْهِ وَرَتِّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلًا ۝ إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا﴾ (الشعراء: 213 ـ 215)، وقال أيضا: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ وَإِن تَدْعُ مُثْقَلَةٌ إِلَىٰ حِمْلِهَا لَا يُحْمَلْ مِنْهُ شَيْءٌ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ إِنَّمَا تُنذِرُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِالْغَيْبِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَمَن تَزَكَّىٰ فَإِنَّمَا يَتَزَكَّىٰ لِنَفْسِهِ وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ﴾ (فاطر: 18). كما قال النبي ﷺ: «ومن بطأ به عمله، لم يسرع به نسبه». والعجيب أن هذا القول للرسول الأكرم جاء ضمن سياق حديث فيه إشارة بليغة لنشر قيم إنسانية بين الناس كالتكافل، والتضامن، والتعاون، والستر، والعلم حيث جاء في نص الحديث: عن أبي هريرة، قال: قال رسول الله ﷺ: «من نفس عن مؤمن كربة من كرب الدنيا، نفس الله عنه كربة

1. محمد شهيد، في المشترك الإنساني: تأسيس مقاصدي، طوب بريس ـ الرباط، ط.1، 2017م، ص:10 ـ 11.

من كرب يوم القيامة، ومن يسر على معسر، يسر الله عليه في الدنيا والآخرة، ومن ستر مسلما، ستره الله في الدنيا والآخرة، والله في عون العبد ما كان العبد في عون أخيه، ومن سلك طريقا يلتمس فيه علما. سهل الله له به طريقا إلى الجنة، وما اجتمع قوم في بيت من بيوت الله، يتلون كتاب الله، ويتدارسونه بينهم، إلا نزلت عليهم السكينة، وغشيتهم الرحمة وحفتهم الملائكة، وذكرهم الله فيمن عنده، ومن بطأ به عمله، لم يسرع به نسبه»[1].

هكذا يخرج مفهوم «الاستعلاء» على الأمم من المفهوم السلبي القاضي بأن الاستعلاء على الأمم الأخرى قيمة يكتسبها المسلم بالوراثة أو تنتقل إليه من جيل إلى آخر بالفطرة بغض النظر عما يقدمه وما يبذله من جهد لصالح الأمة أو الإنسانية، إلى مفهوم إيجابي يكتسب بالعلم والأخلاق وسمو النفس وتكيتها لتحقق المشروع المطلوب.

وهكذا يمكن أن نغلق بابا خطيرا تتسرب منه مفاهيم غير سوية إلى العقل العربي والإسلامي. فتشوش ذهنه وترميه بين أحضان التطرف والإرهاب، فينشغل بال الأمة وأفرادها بالجزئيات والجانبيات. ويبقى التخلف والانكسار الحضاري مآلها، فتزيد بعدا عن البعث المنشود الداعي إلى النهوض وخدمة الإسلام بتحقيق الشهود الحضاري بإرساء قيم التضامن. والتكافل. والتسامح، والعدل في العالم. والسعي في الانخراط مع الإنسان المعاصر لإخراج البشرية مما يتهددها الآن من مخاطر لا تفرق بين مسلم وغيره.

1. أخرجه الإمام مسلم في صحيحه، كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار، باب. فضل الاجتماع على تلاوة القرآن وعلى الذكر.